

التحقيق

في بيان بعض النصوص
التي قد يفهم منها معنى لا يليق

تأليف

أبي عبد الرحمن

الدكتور فيصل بن مسفر بن معوض الزنماحي الوادعي

الجزء الأول

محفوظة جميع الحقوق

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

* فإن الله ﷻ أنزل إلينا كتابه العظيم، وجعله مباركًا وهدى للعالمين، فهدى به من شاء إلى صراط مستقيم، وقد جعله الله واضحًا بينًا؛ لِيَتِمَّ الْاِهْتِدَاءُ بِهِ، **قال تعالى:** ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، **وقال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

* وقد أمرنا الله بتفهم وتدبر آياته، **قال تعالى:** ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

* وقد جعل الله للراسخين في العلم في ذلك أوفر الحظ والنصيب، وأمرنا بالرجوع إليهم في الملمات، **قال تعالى:** ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِـۗ

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ [النساء: ٨٣].

👉 ثم اعلم حفظك الله أن الآيات منها ما هو محكم واضح المعنى لكل أحد، وهن أم الكتاب، ومنها ما هو متشابه خفي المعنى على كثير من الناس، ويفهمه أهل العلم، كل على قدر ما آتاه الله من الفهم، كما جاء عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قُلْتُ لِعَلِيِّ رضي الله عنه: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفَكَأُكَ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ. رواه البخاري (٣٠٤٧).

* وأمر الله برد ذلك المتشابه إلى المحكم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْمُرُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

* والواجب علينا تجاه نصوص الكتاب والسنة هو الأخذ بالظاهر ما لم ترد قرينة صحيحة تصرف اللفظ عن ظاهره.

👉 ثم إن هناك من النصوص ما قد يفهم من ظاهرها معنى غير صحيح تصان عنه نصوص الكتاب والسنة، ولكنه قد يتبادر إلى أذهان بعض الناس، ثم تحصل عندهم الشبهة والإشكالات. وقد صان الله كتابه عن هذه الأفهام الخاطئة التي ربما اشتملت على معانٍ لا تليق بمقامات الرسالة والوحي؛ ولهذا وجب الرجوع في تفسير كلام الله إلى كلام السلف وإلى تفاسير السلف، وهكذا قل في نصوص الأحاديث عن رسول الله ﷺ. فلا بد أن تفهم فهمًا صحيحًا.

* فيجب على الإنسان العناية بفهم كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ فهماً صحيحاً، حتى لا تُفهم على غير ما أراد الله.

👉 وقد جمعتُ في هذه الرسالة عددًا من تلك النصوص التي قد يفهم منها بعض الناس فهماً لا يليق، وذكرت الأقوال الصحيحة في معناها من كلام أهل العلم وأصحاب الشأن؛ ولسعة هذا الموضوع تكون هذه الرسالة كجزء أول، وفيما يأتي إن شاء الله من العمر نكمل البقية، ونسأل الله أن يجعل في ذلك خيراً، وأن يجعل لنا النصيب والحظ الأوفر من تفهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والعمل بهما والثبات عليهما حتى نلقاه، إنه على كل شيء قدير.

المسألة الأولى

﴿قوله تعالى عن قوم لوط: ﴿وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ يَقْوِمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

✖ المعنى غير الصحيح: قد يفهم بعضهم من قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أنه عرضهم لقومه ليزنوا بهن وهذا قول باطل منكر.

✓ المعنى الصحيح:

✱ قال ابن جرير رحمته الله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾: يعني نساء أمته.

قال مجاهد: كل نبي أبو أمته، فأمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحاً.

وفي قراءة أبي بن كعب رحمته الله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أبُّ لهن﴾.

وقد بينها الآية الأخرى وهي قوله تعالى عن لوط: ﴿اتَّاتَوْا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. اهـ.

✱ قال ابن حزم رحمته الله ^(١): إنما أراد لوط التزويج والوطء في المكان المباح، إذ من المحال أن ينهاهم عن منكر ويدعوهم إلى منكر. اهـ.

(١) في «الفصل» ص (٧).

✽ جاءت فتوى اللجنة الدائمة بهذا الموضوع^(١) السؤال: هناك من يفسر المراد

بقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] أن النبي لوطاً ﷺ كان يقصد بذلك تعالوا وافعلوا الفاحشة - أي الزنا - مع بناتي من صليبي، وأن ما ورد عن المفسرين من تفسير الآية أن لوطاً ﷺ أبٌ لجميع المؤمنات، وأنه كان يقصد الزواج الشرعي يخالف ظاهر سياق الآية، ويعلل ذلك بأن الزنا أقرب إلى الفطرة من اللواط وأقل شذوذاً، وبالتالي درءاً لأعظم المفسدتين وهو اللواط، بارتكاب أقل الضررين وهو الزنا، حسب القاعدة المشهورة، فما قولكم في هذا التفسير؟ والحكم على الشخص؟

والجواب: المراد بجملة ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] ندب هؤلاء الكفار إلى التزوج بالنساء ووطئهن في الحلال - سواء كن بناته أم بنات قومه، فإن بنات قومه بناته حكماً؛ لكونه رسولا إليهم - واجتناب اللواط والاعتداء على ضيف لوط بالفاحشة، وعلى كل حال لم يرد الإذن لهم في الزنا ببناته ولا ببنات أمته فإنه من كبائر الذنوب في جميع شرائع الله تعالى، فينزه النبي عن الإذن فيه، ومن قال: إنه أذن فيه؛ لأنه أخف من اللواط، فقد أخطأ وغلط غلطاً عظيماً.

وبالله التوفيق. وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

عبد الرزاق عفيفي

عبد الله بن قعود

عبد العزيز بن باز

عبد الله بن غديان

👉 **فائدة:** وقد تأولت الرافضة أخزاهم الله هذه الآية، فأباحوا إتيان الرجل زوجته في دبرها، كما روى الطوسي، عن موسى بن عبد الملك، عن رجل قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن إتيان الرجل المرأة من خلفها في دبرها؟ فقال: أحلتها آية من كتاب الله، قول لوط هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فقد علم أنهم لا يريدون الفرج. اهـ^(١). عيادًا بالله من هذا الفهم المنحرف.

✱ **وقال الشنقيطي رحمته الله (٢):** اختلف العلماء رحمهم الله في المراد بقول لوط عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ في الموضعين على أقوال:

١- أنه أراد المدافعة عن ضيفه فقط، ولم يرد إمضاء ما قال. وبهذا قال عكرمة، وأبو عبيدة.

٢- أن المراد بناته من صلبه، والمعنى دعوا اللواط وأزوجكم بناتي، وعلى هذا فتزويج الكفار بالمسلمة كان جائزًا في شرعه، كما كانت بنات نبينا محمد عليه السلام تحت الكفار في أول الإسلام كما هو معروف.

٣- أن المراد بالبنات جميع نساء قومه؛ لأن نبي القوم أبٌ ديني لهم، كما يدل عليه **قوله تعالى:** ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفي قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه ﴿وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهن﴾ وبهذا القول قال كثير من العلماء. اهـ.

(١) من كتاب "لله ثم للتاريخ" (١/٤١).

(٢) في "أضواء البيان" (٢/١٨٩).

✽ قال العلامة العثيمين رحمته الله ^(١): ﴿قَالَ يَقَوْمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨] قال بعض العلماء: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يشير إلى بنات القوم، ما هن بناته من صلبه، ولكنه يعني بذلك بنات قومه؛ لأن النبي لقومه بمنزله الأب لهم، كأنه يقول: عندكم النساء، وهذا كقوله في آية أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ يعني: من النساء، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]. اهـ.

✽ وقال رحمته الله ^(٢): وقد ورد في مواطن أخرى من القرآن الكريم أن لوطاً عليه السلام قال لقومه: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: تزوجوهن. وبعض المفسرين قالوا: ﴿بَنَاتِي﴾ يعني: بنات الأمة؛ لأن الرسول أب لقومه فيكن له بمنزلة بناته. والذي دعاهم إلى هذا أنهم قالوا: إن بناته مسلمات مؤمنات، وهؤلاء كفار، والكافر لا يتزوج بالمؤمنة. فيقال: الجواب عن هذا: إما أن شريعتهم تبيح ذلك، أو أن معنى: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني: فأسلموا وتزوجوهن. وهذا في الحقيقة كأنه يقول: أنا أحافظ على ضيوفي أكثر مما أحافظ على أي شيء آخر، يعني: فإني أحميهم حتى إني أتنازل عن بناتي وتزوجوهن؛ من أجل المحافظة على هؤلاء المسلمين. اهـ.

(١) في "شرح رياض الصالحين" (٤/ ١٠٥).

(٢) في "تفسير سورة الشعراء" ص (٢٧١).

* وقال القرطبي رحمه الله ^(١): وقد اختلف في قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ ف قيل: كان له ثلاث بنات من صلبه. وقيل: بنتان، زيتا وزعوراء، ف قيل: كان لهن سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه. وقيل: ندهن في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة، وقد كان هذا في أول الإسلام جائزا ثم نسخ، فزوج رسول الله ﷺ بنتا له من عتبة بن أبي لهب، والأخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين. وقالت فرقة - منهم مجاهد وسعيد بن جبيرة - أشار بقوله: ﴿بَنَاتِي﴾ إلى النساء جملة، إذ نبي القوم أب لهن، ويقوي هذا أن في قراءة ابن مسعود رحمه الله النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهن. وقالت طائفة: إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه، روي هذا القول عن أبي عبيدة، كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا. وقال عكرمة: لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهن هذا لينصرفوا. اهـ.

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٧٦/٩).

المسألة الثانية

﴿قوله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتِ نُوحٍ وَأَمْرَاتِ لُوطٍ كَاتَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾﴾ [التحریم: ١٠].

✖ المعنى غير الصحيح: ربما فهم بعضهم من قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أنها الخيانة في العرض وهذا المعنى باطل ومنكر.

✓ المعنى الصحيح:

* قال ابن جرير رحمه الله: كانت خيانة امرأة نوح زوجها: أنها كانت كافرة، وكانت تقول للناس إنه مجنون. وأن خيانة امرأة لوط: أن لوطاً كان يسر الضيوف، وكانت تدل عليه.

* وقال ابن كثير رحمه الله: خانتاهما في الإيمان، ولم يصدقاها في الرسالة، وليس المراد فخانتاهما في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء.

وهذا قول عكرمة، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وغيرهم من المفسرين.

* وقال ابن كثير رحمه الله: وقد استدل بهذه الآية بعض العلماء على ضعف حديث الذي يآثره كثير من الناس: (من أكل مع مغفور له غفر له)، وهذا الحديث لا أصل له، وإنما يروى عن بعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال: أنت قلت: (من أكل مع مغفور له غفر له) قال: لا، ولكني أقوله الآن. اهـ. ومعلوم أن أحاديث رسول الله ﷺ لا تثبت بالمنامات.

*** قال السعدي رحمه الله:** خانتاهما في الدين بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغياً. اهـ.

ومما يؤيد ذلك **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] والدين يعتبر أمانة.

*** قال العثيمين رحمه الله:** في تفسير **قوله تعالى:** ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]: لكنه كفر مستور، وهو خيانة من جنس النفاق؛ ولهذا يقال للمجتمع الذي فيه منافقون: إنه مجتمع مسلم وإن كان فيه المنافقون؛ لأن المظهر مظهر إسلام. اهـ^(١).

﴿ **فإن قيل فكيف يتزوج النبي بكافرة؟** فيقال: كان هذا سائغاً في ملتهم، كما كان سائغاً في أول ملتنا، فقد زوج النبي ﷺ ابنتيه بكافرين، وهما: أبو العاص بن الربيع، وزوجه بزيب. ثم أسلم بعد ذلك، وعتبة بن أبي لهب وزوجه برقية ثم فارقه، وتزوجها عثمان رضي الله عنه. وقيل: إنها أم كلثوم.

*** قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:** وكانت خيانتهم لهما في الدين لا في الفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، إذ نكاح الكافرة يجوز في بعض الشرائع، ويجوز في شريعتنا نكاح بعض الأنواع وهن الكتابيات، وأما نكاح البغي فهو دياثة، وقد صان الله النبي عن أن يكون ديوثاً. اهـ^(٢).

(١) من "تفسير سورة الذاريات".

(٢) من "مجموع الفتاوى" (٧/ ٤٧٣).

*** قال الشنقيطي رحمه الله:** أجمع المفسرون على أن الخيانة ليست زوجية. وقال ابن عباس رحمه الله: نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة، ولكنها خيانة دينية بعدم إسلامهن، وإخبار قومهن بمن يؤمن مع أزواجهن. اهـ.

وقد رَمَتِ الرافضةُ أخزاهم الله نساء الأنبياء بالفاحشة:

*** قال شيخ الإسلام رحمه الله:** ثم منهم من يرميها -يعني عائشة رضي الله عنها- بالفاحشة التي برأها الله منها، وأنزل القرآن في ذلك، ثم إنهم لفرط جهلهم يدعون ذلك في غيرها من نساء الأنبياء، فيزعمون أن امرأة نوح كانت بغياً، وأن الابن الذي دعاه نوح عليه السلام لم يكن منه، وإنما كان منها، وأن معنى **قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] أن هذا الولد من عمل غير صالح...

إلى أن قال رحمه الله: ومن المعلوم أنه من أعظم أنواع الأذى للإنسان أن يكذب على امرأته رجل ويقول إنها بغية، ويجعل الزوج زوج قحبة، فإن هذا من أعظم ما يشتم به الناس بعضهم بعضاً. اهـ^(١).

وقد يستأنس لقول ابن عباس رحمه الله: (نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة) بتحريم الزوج من نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، والتعليل بأن ذلك كان يؤذيه، كما في **قوله تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فإذا كان تساؤلهن بغير حجاب يؤذيه، والزواج بهن من بعده يؤذيه، فكيف إذا كان الاتهام لهن بفاحشة -والعياذ بالله- فهذا أعظم إيذاءً.

(١) من كتاب "منهاج السنة" (٤/ ٣٤٥).

المسألة الثالثة

❦ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا التُّوفُّ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

❧ المعنى غير الصحيح: قد يفهم بعضهم من قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] تشكك يونس عليه السلام في قدرة الله، وأن الله لا يقدر عليه، واستزله الشيطان، وهذا معنى باطل منكر.

❨ المعنى الصحيح:

* ذكر ابن جرير رحمه الله في تفسيره المعنى الباطل ورده وذكر المعنى الصحيح فقال رحمه الله: وقوله: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: فظنَّ أن لن نعاقبه بالتضييق عليه، من قولهم قدرت على فلان: إذا ضيقت عليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

ثم ساق من قال بذلك من المفسرين عن ابن عباس رحمه الله ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم.

* ثم قال: وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظنَّ أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه وساق ذلك عن الحسن وإياس بن معاوية المدني.

* ثم قال: وقال آخرون: بل ذلك بمعنى الاستفهام، وإنما تأويله: أفظنَّ أن لن نقدر عليه؟ وساق ذلك عن ابن زيد.

* قال رحمه الله: وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عَنَى به: فظنَّ يونس أن لن نحبسَه ونضيق عليه، عقوبة له على مغاضبته ربه.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الكلمة، لأنه لا يجوز أن ينسب إلى الكفر، وقد اختاره لنبوته، ووصفه بأن ظنَّ أن ربه يعجز عما أراد به ولا يقدر عليه، ووصف له بأنه جهل قدرة الله، وذلك وصف له بالكفر، وغير جائز لأحد وصفه بذلك، وأما ما قاله ابن زيد، فإنه قول لو كان في الكلام دليل على أنه استفهام حسن، ولكنه لا دلالة فيه على أن ذلك كذلك، والعرب لا تحذف من الكلام شيئاً لهم إليه حاجة إلا وقد أبقت دليلاً على أنه مراد في الكلام، فإذا لم يكن في **قوله**: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] دلالة على أن المراد به الاستفهام كما قال ابن زيد، كان معلوماً أنه ليس به، وإذا فسد هذان الوجهان، صح الثالث وهو ما قلنا. اهـ.

*** قال ابن كثير** رحمته الله: يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى، وهي قرية من قرى الموصل، فدعاهم إلى الله فأبوا عليه، وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أنه نبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادهما، وثغت الغنم وحملاتها، فرفع الله عنهم العذاب، **قال تعالى**: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ثم ذكر ابن كثير رحمته الله قصة يونس عليه السلام، ومسألة القرعة في البحر، ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، ثم قال: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي نضيق عليه في بطن الحوت، يروى عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم،

واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]. اهـ.

* وأيضاً بمعناه **قوله تعالى**: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

* **ورد الشنقيطي** رحمته الله ^(١) على قول من قال: ﴿أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] من القدرة، **فقال**: وهو قول باطل بلا شك؛ لأن نبي الله يونس عليه السلام لا يشك في قدرة الله على كل شيء كما لا يخفى.

✍ **ورجح أن معنى الآية يحتمل معنيين صحيحين:**

١ - لن نقدر عليه: لن نضيق عليه في بطن الحوت.

٢ - لن نقدر عليه: لن نقضي عليه ذلك.

* **ثم ذكر** رحمته الله **الخلاف في قوله: ﴿مُعْضِبًا﴾** وأنها تحتمل معنيين:

١ - مغاضباً لقومه. (وابن كثير لم يذكر غيرها).

٢ - مغاضباً لربه. (ذكرها بعض المفسرين).

* **قال الشنقيطي** رحمته الله: ولا بد من حمل معناها على أنها مغاضباً لأجل ربه، وذكر عن القرطبي، وقال هذا سائغ في اللغة العربية، وغير هذا لا يصح في الآية.

* **قال ابن حزم** رحمته الله ^(١): قالوا: ولا ذنب أعظم من المغاضبة لله تعالى، ومن أكبر ذنباً ممن ظن أن الله لا يقدر عليه، وقد أخبر الله تعالى أنه استحق الذم لولا أن

(١) في «أضواء البيان».

تداركه نعمة الله ﷻ، وأنه استحق الملامة، وأنه أقر على نفسه أنه كان من الظالمين، ونهى الله نبيه أن يكون مثله. **قال أبو محمد ابن حزم:** هذا كله لا حجة لهم فيه، بل هو حجة لنا على صحة قولنا والحمد لله.

✍ أما إخبار الله أن يونس ذهب مغاضباً فلم يغضب ربه قط، ولا قال الله أنه غاضب ربه، فمن زاد هذه الزيادة كان قائلاً على الله الكذب، وزائداً في القرآن ما ليس فيه، هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل أنه يغضب ربه، فكيف أن يفعل ذلك نبي من الأنبياء. فعلمنا يقيناً أنه إنما غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله ﷻ فعوقب بذلك، وإن كان يونس لم يقصد بذلك إلا رضا الله ﷻ.

وأما قوله: ﴿فَظَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل، فكيف بنبي مفضل على الناس في العلم.

إلى أن قال: وصح أن معنى **قوله:** ﴿فَظَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي: لن نصيق عليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر: ١٦]، أي: ضيق عليه، فظن يونس ﷺ أن الله تعالى لا يضيق عليه في مغاضبته لقومه، إذ ظن أنه محسن في فعله ذلك.

وإنما نهى الله ﷻ لمحمد ﷺ أن يكون كصاحب الحوت فنعم، نهى الله ﷻ عن مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم. اهـ.

=

وكذلك ذكر صاحب "كتاب تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء" وهو أبو الحسن علي بن أحمد السبتي المعروف بـ (ابن خمير)، المتوفى (٦١٤ هـ).

*** قال العلامة العثيمين رحمته الله (١):** مسألة: قال الله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلُظًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، فهل يجوز مثل هذا الظن من الرسل؟

والجواب: أن معنى نقدر أي نضيق كما **قال تعالى:** ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، فيونس عليه السلام ظن أنه بخروجه هذا أنه يجد سعة عما كان عليه في الأول فظن ذلك، ولكن الله تعالى أراه أنه في قبضته عليه السلام وضيق عليه أكثر من ذي قبل، في بطن الحوت: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ * فَبَدَّلَهُ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٥]. اهـ.

(١) في "شرح العقيدة السفارينية" (١/ ٥٧٤).

المسألة الرابعة

﴿قوله تعالى: وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

✕ المعنى غير الصحيح: ربما توهم بعضهم أن معنى قوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أنه الضلال في الدين الذي بمعنى الغواية وهذا معنى باطل منكر.

✓ المعنى الصحيح:

✱ قال ابن الجوزي رحمه الله: فيها ستة أقوال:

١- ضالًّا عن معالم النبوة، وأحكام الشريعة، فهداك الله إليها. (قاله الجمهور).

٢- ضل وهو صغير في شعاب مكة فرده الله إلى جده عبد المطلب.

٣- لما خرج مع ميسرة - غلام خديجة - أخذ إبليس بزمام ناقته فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة إلى الحبشة، وردّه إلى القافلة.

٤- ووجدك في قوم ضلال فهداك.

٥- ووجدك نسيا فهداك إلى الذكر، كقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٦- وجدك خاملاً لا تُعرف فهدى الناس إليك فعرفوك. اهـ.

✱ وأما ابن كثير رحمه الله فقال: هذه كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا

مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلَايْمُنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. ثم ذكر القول الثاني والثالث في

كلام ابن الجوزي رحمه الله.

✱ قال الشوكاني رحمته الله ^(١): والضلال هنا بمعنى الغفلة، كما في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وكما في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. وقيل: معنى ضالا: لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهذا الله لذلك. ثم ذكر أقوالاً أخرى.

✱ قال السعدي رحمته الله: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]: أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه بيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة: إما السنة التي قد قال فيها بعض السلف: أن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن. وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى، فإنه رحمته الله وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، ثم لم يزل يوحى إليه ويعلمه ويكمله، حتى ارتقى مقاما في العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. اهـ.

ومن ذلك قوله: ﴿مَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

(١) في "فتح القدير".

✽ قال الشنقيطي رحمه الله ^(١): **قوله تعالى:** ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مَنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي.

👉 ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى **قوله تعالى** عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ أَلْقَدِيرٍ﴾ [يوسف: ٩٥]، **وقوله تعالى** في نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي: لست عالمًا بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، فهداك إليها وعلمكها بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم.

وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنما مرادهم أن أباهم - في زعمهم - في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللاتقة به، حيث أثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعًا له، وأقدر على القيام بشئونه وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما الضلال في الدين، أي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وهذا أشهر معانيه في القرآن؛ ومنه بهذا المعنى **قوله:** ﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] **وقوله:** ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١]، **وقوله:** ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات.

(١) في «أضواء البيان» سورة يوسف.

الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، من قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمى العرب الدفن إضلالاً؛ لأنه تغييب في الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها؛ لأنها تصير رميمًا وتمتزج بالأرض. ومنه بهذا المعنى **قوله تعالى**: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] الآية.

ومن إطلاق الضلال على الغيبة **قوله تعالى**: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] أي غاب واضمحل.

ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل
فقلوه: مضلوه، يعني دافنيه. وقوله: بعين جلية، أي بخبر يقين، والجولان: جبل دفن عنده المذكور. اهـ.

المسألة الخامسة

﴿قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام﴾: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [٧٦] [الأنعام: ٧٦].

✕ المعنى غير الصحيح: ربما توهم بعضهم أن قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ شك في ربوبية الله سبحانه وهذا معنى باطل منكر.

✓ المعنى الصحيح:

* قال ابن كثير رحمه الله: وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه، حين تخوفت عليه النمروذ بن كنعان، لما أن قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامئذٍ، فلما حملت أم إبراهيم به وحن وضعها، ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك. وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف.

👉 والحق أن إبراهيم عليه السلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك

مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة. اهـ.

ومن الأدلة على أن إبراهيم لم يكن ناضراً في هذا المقام:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾

[الأنبياء: ٥١].

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[النحل: ١٢٠] أي: لم يكن من المشركين يوماً من الأيام.

٣ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

٤ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى

الْفِطْرَةِ». متفق عليه ^(١).

٥ - عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَنْ رَبِّهِ

تَعَالَى: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ». رواه مسلم (٢٨٦٥). فإذا كان هذا في

حق سائر الخليقة فكيف لا يكون في حق إبراهيم الذي جعله الله أمة قانتاً.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ الآية [سورة

الأنعام: ٨٠].

وفي هذه القصة التي ذكرها ابن جرير رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنه، ورجحها،

فيها من الغرائب والعجائب الكثيرة، من ذلك: أنه كان يكبر في اليوم كشهري وفي

(١) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

الشهر كسنة، وأن أمه تركته في الغار لوحده من يوم ولادته ولم يعلم بذلك، وغير ذلك من الأشياء التي تحتاج إلى خبر عن المعصوم عليه السلام.

*** قال ابن حزم رحمته الله ^(١) معلقاً على هذه القصة:**

وهذه خرافة موضوعة مكذوبة ظاهرة الافتعال ومن المحال الممتنع أن يبلغ أحد حد التميز والكلام بمثل هذا وهو لم يرق شمساً ولا قمرًا ولا كوكبًا وقد أكذب الله هذا الظن الكاذب بقوله الصادق: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

إلى أن قال: ومعاذ الله أن يكون الخليل عليه السلام أشرك قط بربه أو شك في أن الفلك بكل ما فيه مخلوق. وبرهان قولنا هذا إن الله تعالى لم يعاتبه على شيء مما ذكر ولا عنفه على ذلك، بل صدقه تعالى **بقوله:** ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

*** وقد رد شيخ الإسلام رحمته الله هذه الغريبة من وجه آخر، فقال ^(٢):** والمقصود هنا أن

المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلها آخر مساوياً له في الصفات والأفعال، بل ولا كانوا يقولون: إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم، ولا أن الأصنام تخلق شيئاً من العالم، ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين، أو أن الخليل عليه السلام لما قال هذا ربي أراد به رب العالمين فقد غلط غلطاً بيناً، بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع، وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين. إلخ كلامه رحمته الله.

(١) في «الفصل» (٦/٤).

(٢) كما في كتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/٣٥٤).

*** قال السعدي رحمه الله: قوله:** ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]. أي: على وجه التنزل مع الخصم أي: هذا ربي، فهل ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان. إلخ كلامه **رحمه الله**.

*** وقال رحمه الله^(١):** والمناظرة تخالف غيرها في أمور كثيرة منها: أن المناظر يقول الشيء الذي لا يعتقده ليني عليه حجته، وليقيم الحجة على خصمه، كما قال في تكسيره الأصنام لما قالوا له: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهَيْنَا﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فأشار إلى الصنم الذي لم يكسره فقال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة، وقد حصلت. فهنا يسهل علينا فهم معنى **قوله:** ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أي: إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والإلهية مثقال ذرة، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة. اهـ.

فائدة: جاء في صحيح مسلم في بعض الروايات: عدُّ إبراهيم **رحمه الله** قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ من الكذبات التي كذبها وهي المعاريض.

*** ولكن قال الحافظ ابن حجر رحمه الله^(٢):** الذي يظهر أنها وهم من بعض الرواة فإنه ذكر قوله: (في الكوكب) بدل قوله: (في سارة) والذي اتفقت عليه الطرق ذكر سارة دون الكوكب، وكأنه لم يعد مع أنه أدخل من ذكر سارة لما نقل: أنه قاله في

(١) في "تيسير اللطيف المنان".

(٢) في "الفتح" ٣٩١ / ٦.

حال الطفولية فلم يعدها؛ لأن حال الطفولية ليست بحال تكليف وهذه طريقة بن إسحاق.

وقيل: إنما قال ذلك بعد البلوغ لكنه قاله على طريق الاستفهام الذي يقصد به التوبيخ.

وقيل: قاله على طريق الاحتجاج على قومه، تنبيهاً على أن الذي يتغير لا يصلح للربوبية، وهذا قول الأكثر إنه قاله توبيخاً لقومه أو تهكما بهم، وهو المعتمد؛ ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات. اهـ.

المسألة السادسة

﴿قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

✕ المعنى غير الصحيح: قد يفهم بعضهم من هذه الآية ونظائرها أنه يجوز للإنسان أن يعتقد الاعتقاد الذي يريد، ويدين بالدين الذي يريد ولو كان غير دين الإسلام، وهذا الفهم باطل ومنكر.

✓ المعنى الصحيح:

* قال ابن كثير رحمته الله: لا إكراه في الدين أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً.

إلى أن قال رحمته الله: وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء، أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف، دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه، ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، وهذا معنى الإكراه، قال الله تعالى:

﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ يُقَتِّلُونَهُمْ أَوْ يُسَبِّحُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وفي الصحيح^(١): «عَجَبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ». يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٢) فقال: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَسْلِمَ» قَالَ: إِنِّي أَجِدُنِي كَارِهًا، قَالَ: «وَأِنْ كُنْتُ كَارِهًا». فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: أسلم وإن كنت كارهًا، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص. اهـ.

👉 فعلى هذا تكون هذه الآية خاصة بمن تؤخذ منهم الجزية إذا بذلوا الجزية، فلا يكرهوا على الإسلام، ويدل على ذلك حديث بريدة رضي الله عنه^(٣): «ادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ»، ومنها: «فَسَلِّهِمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ...» الحديث.

👉 ثم اختلف العلماء في منهم الذين تؤخذ منهم الجزية؟

- فالجمهور على أنها تؤخذ من اليهود والنصارى والمجوس، وهو قول أحمد والشافعي. وأما غيرهم فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتال.

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٠).

(٢) في «المسند» برقم (١١).

(٣) في «مسلم» (١٧٣١).

- وذهب جمع من أهل العلم، وهو قول مالك، ورجحه ابن القيم والشوكاني والصنعاني والعثيمين: أنها تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد، ولا بن القيم رحمته الله كلام طويل في ذلك في كتابه "أحكام أهل الذمة".

☞ وقد استدل أقوام بهذه الآية ونظائرها على مذهب هدام وباطل: **وهو ما يسمونه بحرية الفكر والاعتقاد** ويجعلون لكل إنسان الحرية في اعتقاد ما يريد من الأديان والاعتقادات ولو كانت كفرًا، ولهم في ذلك شبهات ذكرتها والرد عليها في كتابي "الفائدة في دفع أهم الشبه السائدة لأهل العقائد الفاسدة" ونذكر ملخصها هنا:

أولاً: ذكر اعتقاد أهل السنة في هذا الباب نعتقد:

أن الله خلق العباد، وأمدهم بالنعم، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأمرهم سبحانه بالإسلام له، بمعنى أن يستسلموا له بالتوحيد، وينقادوا له بالطاعة، ودين الإسلام كامل، فجميع ما ينبغي على المسلم اعتقاده قد بينه الله وبينه رسوله ﷺ، وحياة المسلم لا بد أن تكون كلها لله ﷻ، ومستمدة من شرع الله سبحانه، ولا يجوز للإنسان اعتقاد ما يريد، بل عليه أن يعتقد ما يريده الله منه.

الأدلة على ذلك:

١ - **قال تعالى:** ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٢ - **قال تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام: ١٦٢].

٣- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

﴿١١٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٤- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

٥- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

الرد الإجمالي على أصحاب مسألة حرية الرأي والفكر والاعتقاد:

١- الدعوة إلى حرية الرأي والفكر والاعتقاد دعوة إلى الكفر بالله؛ لأن معتنقها سيختار الإله والمعبود الذي يريد، والدين الذي يريد؛ لأنه حرٌّ على زعمه. وهذا شيء لا يُخْتَلَفُ فيه: أن من عبد غير الله فإنه مشرك كافر، وأن من اعتنق غير الإسلام فإنه مشرك كافر.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أُبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

٢- أصبحت هذه الدعوة ستارًا لمن أراد الطعن في النبي ﷺ، أو في دين الإسلام، أو سب الله ورسوله ودينه، بحجة أن هذه حريات شخصية، وأن له حرية الرأي.

حتى أصبحت هذه الدعوة هي عكاز الزنادقة الذين تختلف طلعاتهم وكلماتهم في كل عصر، ولكن يجمعهم الكفر بالله، والطعن في دينه ونبيه محمد ﷺ، تحت مظلة الحريات الشخصية، والرأي والرأي الآخر، وحرية المعتقد.

٣- أصبحت ستارًا للدعوات الهدامة للدين من العلمانية والإلحادية وغيرها.

٤- أصبحت ستارًا لكل من أراد نشر الفاحشة والزيلة على شتى أنواعها؛ بحجة الحريات الشخصية، والله المستعان.

٥- الاعتقادات والأديان ليست أفكارًا، ولكنها وحي من الله ﷻ ينزله على رسله، ليسيّر عباده عليه.

٦- من قال: (إنه حرٌّ) وأراد أنه حر من رق العبودية لله ﷻ فقد أساء في فهم العبودية، ولم يعرف معنى الحرية، فإن العبودية لغير الله هي الرق، أما عبودية المرء لربه فهي الحرية، وليس الإنسان بحرٌّ في معصية الله، بل إذا عصيت الله تعالى فإنك خرجت من الرق الذي تدعيه في عبودية الله إلى رق الشيطان والهوى.

٧- لو قال إنسان من الذين يدعون الحرية في كل شيء: أنا حر في عدم تسديد الديون التي عندي للناس، وأنا حرٌّ في مخالفة أنظمة هذه الدولة؛ من المرور والطرق والمعاملات، لما رضي الناس منه بذلك، ولا رضيت الدول منه بذلك،

بل سيقولون له لابد أن تتقيد بأنظمة البلد وقوانينها، وإلا عرضت نفسك للعقوبة، فسبحان الله!! إذا كان هذا في أمور الدنيا لا تنتظم أموره إلا بالتقيد بالأنظمة، فكيف بأمور الدين والآخرة، التي هي مدار السعادة في الدنيا والآخرة لابد أن تكون منضبطة على ما أراد الله ورسوله.

شبهتهم الأولى:

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والرد عليهم:

أن معنى الآية: لا تكرهوا على الدين الإسلامي من لم يرد الدخول فيه، فإنه قد تبين الرشد وهو دين محمد ﷺ وأصحابه وأتباعهم بإحسان، هو توحيد الله بعبادته وطاعته، وترك نواهيه، وكان هذا قبل أن يشرع الله سبحانه الجهاد بالسيف لجميع المشركين، إلا من بذل الجزية من أهل الكتاب والمجوس.

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَامُون﴾ [الفتح: ١٦].

فيكون معنى الآية: لا تكرهوا من دفع الجزية من أهل الكتاب والمجوس على الإسلام إذا دفعها وهو صاغر، وأما غيرهم من الكفار فالواجب إكراههم على الإسلام حتى يدخلوا فيه؛ للآيات الأخرى الناسخة لذلك الحكم.

- وقال بعض أهل العلم بجواز أخذ الجزية من جميع الكفار إلا المرتد، فيكون معنى الآية: لا تكرهوا من دفع الجزية وهو صاغر على الدخول في الإسلام، فإن الدين الإسلامي واضح، جلية دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من شرح الله صدره هداة للإسلام، ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً.

الشبهة الثانية:

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

والرد عليهم:

هذه السورة هي سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص في الدين. وليس في هذا تقرير لهم على دينهم الذي هم عليه، ولكنها من قبيل التهديد والوعيد، **كقوله تعالى:** ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، **وقوله تعالى:** ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

👉 وصف الله لدينهم أنه كفر في أول السورة ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] وصف كافٍ بأن دينهم غير مقبول؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقَبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ويقول النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ».

فخلاصة الكلام أن هذه الآية فيها التبرئة من دين الكفار، ويشابها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] **قال البخاري رحمه الله:** لكم دينكم يعني الكفر، ولي دين الإسلام.

*** قال ابن كثير رحمته الله:** وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة لكم دينكم ولي دين على أن الكفر ملة واحدة، فيرث اليهود من النصارى وبالعكس إذ كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان. وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود، وبالعكس لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى»^(١).

*** قال الشنقيطي رحمته الله:** وليس في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٢) [الكافرون: ٦]، تقريرهم على دينهم الذي هم عليه، ولكن من قبيل التهديد والوعيد كقوله: ﴿مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٣) [الكهف: ٢٩]. وفي هذه السورة وصف كاف بأن دينهم ذلك كفر وهو **قوله** في أول السورة ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾^(٤) [الكافرون: ١] **والله سبحانه يقول:** ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٥) [آل عمران: ٨٥]، **ويقول:** ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٦) [آل عمران: ١٩].

ويقول النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ». متفق عليه عن أبي هريرة^(٣).

(١) رواه أبو داود (٢٩١١).

(٢) في «أضواء البيان».

(٣) رواه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

*** قال شيخ الإسلام رحمه الله ^(١):** وهو يشرح عن أحد وزراء التتار، الملقب بالرشيد، وتمكينه لأعداء الإسلام من المسلمين، وتقريب الزنادقة من القضاء، بل إنه صنف كتابا مضمونه أن النبي ﷺ رضي بدين اليهود والنصارى، وأنه لا ينكر عليهم، ولا يذمون ولا ينهون عن دينهم، ولا يؤمرون بالانتقال إلى الإسلام، واستدل الخبيث الجاهل بقوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١-٦]، وزعم أن هذه الآية تقتضي أنه يرضى دينهم، وقال هذه الآية محكمة وليست منسوخة، وجرت بسبب ذلك أمور.

- ومن المعلوم أن هذا جهل منه فإن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦] ليس فيه ما يقتضي أن يكون دين الكفار حقا ولا مرضيا له، وإنما يدل على تبرئة من دينهم ولهذا قال الرسول ﷺ في هذه السورة إنها براءة من الشرك كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾﴾ [يونس: ٤١]. اهـ.

✍️ فالخلاصة: الدين هو ما يدين به الإنسان سواء كان دينهم حقا أم باطلا، وقد قيد الله الدين بقوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣] فهناك دين باطل كما ذكره الله تعالى عن آلهة باطلة وأن الله هو الإله الحق سبحانه.

(١) كما في «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٥٤٥).

الشبهة الثالثة:

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

والرد عليهم:

أن هذا على سبيل التهديد والتقريع والتوبيخ، فيكون المعنى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لمشركي قومك: ﴿اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ مفردًا له طاعتي وعبادتي، لا أجعل له في ذلك شريكًا، ولكني أفرده بالألوهية، وأبرأ مما سواه من الأنداد والآلهة، ﴿فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان والأصنام وغير ذلك، فستعلمون وبال ذلك وعاقبته إذا لقيتم ربكم.

الشبهة الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]. قالوا ففي الآية نهي عن إكراه الناس على الإيمان.

الرد عليهم:

معنى الآية: **قال السعدي** رحمته الله: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين. ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله على شيء من ذلك.

*** وقال الشنقيطي رحمه الله^(١):** بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن من لم يهده الله فلا هادي له، ولا يمكن أحدًا أن يقهر قلبه على الانشراح إلى الإيمان إلا إذا أراد الله به ذلك، وأوضح ذلك المعنى في آيات كثيرة، **كقوله:** ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] **وقوله:** ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧] الآية. **وقوله:** ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] الآية. **وقوله:** ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا، كما تقدم في النساء. والظاهر أنها غير منسوخة، وأن معناها أنه لا يهدي القلوب ويوجهها إلى الخير إلا الله تعالى، وأظهر دليل على ذلك أن الله أتبعه **بقوله:** ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠] الآية.

الشبهة الخامسة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، قالوا فقد نهينا عن سب المشركين، وهذا يدل على أنهم ليسوا على باطل.

والرد عليهم:

- أن هذا السب إنما حرّم إذا أدّى إلى مفسدة أعظم، ألا وهي سب الله ورسوله ودينه، فإذا كان سب المشركين وآلهتهم سيؤدي بهؤلاء المشركين إلى سب الله ورسوله فيترك درءًا للمفسدة.

(١) في «أضواء البيان» عند هذه الآية.

- أما إذا لم تتوقع تلك المفسدة فإن سب الشرك وأهله أمر مقصود في الشريعة، **قال تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾

[محمد: ١٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

المسألة السابعة

﴿قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ

مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

✕ المعنى غير الصحيح: ربما توهم بعضهم أن الذي يعمل المعاصي متعمداً أو لا يتوب بعد ارتكاب الذنب مباشرة أنه لا توبة له، وهذا معنى باطل منكر.

✓ المعنى الصحيح:

* قال ابن كثير رحمه الله: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو قبل معاينة الملك روحه قبل الغرغرة. قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأً أو عمداً، فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب.

وقال قتادة: عن أبي العالية: أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة، رواه ابن جرير.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي الله به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره.

وقال ابن جريج: أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد، قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها. قال ابن جريج: وقال لي عطاء بن أبي رباح، نحوه.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: من جهالته عمل السوء.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ثم يتوبون من قريب قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت.

وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب. وقال قتادة والسدي: ما دام في صحته، وهو مروي عن ابن عباس. وقال الحسن البصري ثم يتوبون من قريب، ما لم يغرغر. وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

*** ثم ذكر ابن كثير رحمه الله أحاديث على هذا المعنى، ثم قال:** فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله ﷻ وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة؛ ولهذا **قال تعالى:** ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، وأما متى وقع اليأس من الحياة، وعاین الملك، وحشرت الروح في الحلق وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبة مقبولة حينئذ، ولات حين مناص، ولهذا قال وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن. اهـ.

*** قال السعدي رحمه الله: قوله:** ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ أي: جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تتول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالما بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقبا عليها. اهـ.

*** ورد هذا القول ابن جرير رحمه الله وقال:** وقد زعم بعض أهل العربية أن معناه: أنهم جهلوا كنه ما فيه من العقاب، فلم يعلموه كعلم العالم، وإن علموه ذنبًا، ولو كان الأمر على ما قال صاحب هذا القول، لوجب أن لا تكون توبة لمن علم كنه ما فيه. وذلك أنه جل ثناؤه **قال:** ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] دون غيرهم.

فالواجب على صاحب هذا القول أن لا يكون للعالم الذي عمل سوءاً على علم منه بكنهه ما فيه، ثم تاب من قريب توبة، وذلك خلاف الثابت عن رسول الله ﷺ.

*** وقد ذكر ابن جرير رحمه الله** الأقوال في معنى الجهالة، ورجح أن عمل السوء والمعصية نفسها هي الجهالة التي جهلوا عامدين كانوا للجهل أو جاهلين. وذكر قول ابن زيد: الجهالة: كل امرئ عمل شيئاً من معاصي الله فهو جاهل أبداً حتى ينزع عنها وقرأ **قوله تعالى**: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]، وقرأ: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]. اهـ.

*** قال العثيمين رحمه الله^(١)**: فالضلالة: ارتكاب الخطأ. والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد؛ ولهذا نقول: من عمل سوءاً بجهالة فهو آثم، ومن عمل سوءاً بجهل فليس بآثم، **قال تعالى**: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧] الآية، والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد، وهي السفه. اهـ.

(١) في «القول المفيد» [باب: ما جاء في السحر].

المسألة الثامنة

﴿قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾﴾

[المائدة: ١٠٥].

✕ المعنى غير الصحيح: ربما فهم بعضهم من هذه الآية ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا معنى غير صحيح.

✓ المعنى الصحيح:

* قال شيخ الإسلام رحمته الله (١): ﴿قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾﴾ [المائدة: ١٠٥] لا يقتضي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا نهيًا ولا إذنًا، كما في الحديث المشهور في السنن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَصْعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ» (٢).

وكذلك في حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه مرفوعا في تأويلها: «إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا يَدَانِ لَكَ بِهِ، فَعَلَيْكَ خُوصِصَةَ نَفْسِكَ».

(١) كما في «مجموع الفتاوى» (٤٧٩/١٤).

(٢) رواه الترمذي (٢١٦٨)، وأبو داود (٤٣٣٨).

وهذا يفسره حديث أبي سعيد رضي الله عنه ^(١): «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» فإذا قوي أهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى البر؛ بل يؤذون الناهي لغلبة الشح والهوى والعجب سقط التغيير باللسان في هذه الحال وبقي بالقلب...

إلى أن قال: وما ذكره الصديق ظاهر؛ **فإن الله قال:** ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] أي الزموها وأقبلوا عليها ومن مصالح النفس فعل ما أمرت به من الأمر والنهي. **وقال:** ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله وأدي الواجب من الأمر والنهي وغيرهما. اهـ.

فتبين أنه لا يتم هدى العبد إلا بالإتيان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك بدرجات الإنكار المعروفة، إما باليد أو باللسان أو بالقلب. ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير مهتد **قوله تعالى:** ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٣﴾ [العصر: ١-٣]. فحكم على الذين لا يتواصى بالحق والصبر بالخسارة وهي ضد الاهتداء.

*** قال النووي رحمه الله ^(٢):** وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضا من النصيحة التي هي الدين. ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة، ولا يعتد بخلافهم، كما قال الإمام أبو

(١) في "مسلم" (٤٩).

(٢) "شرح مسلم" (٢٢/٢).

المعالي إمام الحرمين: لا يكثرث بخلافهم في هذا، فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء. ووجوبه بالشرع لا بالعقل خلافاً للمعتزلة.

وأما **قول الله ﷻ**: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] فليس مخالفاً لما ذكرناه؛ لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية: أنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضرركم تقصير غيركم، مثل **قوله تعالى**: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] وإذا كان كذلك فمما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعله ولم يمثّل المخاطب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل، لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهي لا القبول والله أعلم. اهـ.

*** وقال العلامة العثيمين^(١): قوله:** ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] لأن الناس قد يقولون: إذا كان هناك فسقة أو كفار فإننا نخشى على أنفسنا من هذا، فبين الله ﷻ أن ذلك لا يضرنا إذا أصلحنا أنفسنا، وهذا كما جاء في الحديث: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وأعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام».

وقوله: ﴿إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ يعني إذا استقمتم على صراط الله، ومن الهداية أن يأمر الإنسان بالمعروف وينهى عن المنكر بقدر الاستطاعة، فليس في الآية ما يدل على إسقاط أو على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن من أعظم الهداية وأتم الهداية أن يأمر الإنسان بالمعروف وينهى عن المنكر. اهـ.

(١) في "تفسير سورة المائدة" (٢/ ٤٥٩).

* وقال ﷺ^(١): **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، بعض الناس يفهم من هذه الآية أن الإنسان إذا أصلح نفسه ليس عليه من إصلاح غيره، لكن نقول: إن إصلاح غيرك لا يتم إلا بإصلاح نفسك، فأنت مأمورٌ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن إذا ضلوا فإن ضلالهم لا يضرُّك بعد أن تقوم بما يجب عليك من الدعوة والأمر. اهـ.

(١) في "تفسير سورة النمل" ص (٥٣١).

المسألة التاسعة

﴿قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤) [التوبة: ٣٤].

✖ **المعنى غير الصحيح:** ربما فهم بعضهم تحريم اكتناز الذهب والفضة وادخارهما على الإطلاق وهذا غير صحيح.

✓ **المعنى الصحيح:**

* **قال ابن كثير** رحمته الله عند الآية: وأما الكنز فقال مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تؤدي منه الزكاة.

وروى الثوري وغيره عن عبيد الله عن نافع، عن ابن عمر قال: ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدي زكاته فهو كنز. وقد روي هذا عن ابن عباس، وجابر، وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً وعمر بن الخطاب، نحوه، رحمته الله: أيما مال أدت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكره به صاحبه وإن كان على وجه الأرض. اهـ.

* **وقد بوب الإمام الوادعي** رحمته الله باب: [اقتناء المال] ^(١) وذكر فيه حديث عمر رحمته الله

المرفوع **فقال:** قال أبو داود رحمته الله (ج ٥ ص ٨١): حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي، حدثنا أبي، حدثنا غيلان، عن جعفر بن إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ

(١) في «الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين» (٤ / ٤٦٨).

أَلْذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴿[التوبة: ٣٤] قال: كُبر ذلك على المسلمين، فقال عمر رضي الله عنه: أنا أفرج عنكم، فانطلق فقال: يا نبي الله إنه كبر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث لتكون لمن بعدكم» فكبر عمر، ثم قال له: «ألا أخبرك بخير ما يكتز المرء: المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته». قال الإمام الوادعي: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. اهـ.

*** قال النووي رحمته الله (١):** قال القاضي واختلف السلف في المراد بالكتز المذكور في القرآن والحديث فقال أكثرهم هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد فأما مال أخرجت زكاته فليس بكتز. اهـ.

*** قال الشيخ العثيمين رحمته الله (٢):** ومعنى يكتزونها أي: لا يؤدون زكاتها، كما فسرنا بذلك أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم لأن ما لا يؤدي زكاته فهو كتز، ولو كان على رؤوس الجبال، وما تؤدي زكاته فليس بكتز ولو كان في باطن الأرض فالكتز ما لا تؤدي زكاته. اهـ.

(١) كما في «شرح مسلم» (٦٨/٧).

(٢) كما في «شرح رياض الصالحين» (٢٥٧/٥).

المسألة العاشرة

﴿قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾﴾

[النساء: ٤٨].

✖ **المعنى غير الصحيح:** ربما فهم بعضهم أن الشرك لا يغفره الله حتى لو تاب صاحبه وهذا المعنى باطل وغير صحيح.

✓ **المعنى الصحيح:**

* **قال شيخ الإسلام رحمته الله (١):** وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذه الآية في حق من لم يتب؛ ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة، فأخبر أنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه، وما دونه يغفره لمن يشاء.

وأما **قوله:** ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فتلك في حق التائبين؛ ولهذا عم وأطلق. اهـ.

فتبين أن **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فحكم بأن الشرك غير مغفور للمشرك يعني إذا مات غير تائب منه **لقوله:** ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

(١) كما في "مجموع الفتاوى" (٥٠/١٠).

*** وقد استدل شيخ الإسلام رحمته الله ^(١) بهذه الآية على حديث: «سب أصحابي ذنب لا يغفر»، وأنه كذب على رسول الله ﷺ، وأنه لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في كتب المسلمين المعتمدة، وبين أن الشرك الذي لا يغفر هو في حق من لم يتب، وأما من تاب فيغفر باتفاق المسلمين، وليس سب الصحابي بأعظم من سب الأنبياء أو سب الله تعالى، فإن من سب الله تعالى حال كفره أو سب النبي ﷺ ثم تاب قبل الله منه، وقد كان طائفة يسبون النبي ﷺ من أهل الحرب ثم أسلموا وحسن إسلامهم وقبل النبي ﷺ منهم. اهـ.**

وجاء عن عبادة بن الصّامِت رضي الله عنه، وَكَانَ شَهِيدَ بَدْرًا، وَهُوَ أَحَدُ النَّبَإِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ». فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ. رواه البخاري (١٨) ومسلم (١٧٠٩).

*** ذكر الشيخ الألباني رحمته الله هذا الحديث ^(٢) ثم قال:** وفي الحديث رد كما قال العلماء على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، وعلى المعتزلة الذين يوجبون تعذيب الفاسق إذا مات بلا توبة؛ لأن النبي ﷺ أخبر بأنه تحت المشيئة، ولم يقل لا بد أن يعذبه.

(١) كما في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٩٠).

(٢) في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٩٩).

قلت -الألباني-: ومثله **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فقد فرق تعالى بين الشرك وبين غيره من الذنوب، فأخبر أن الشرك لا يغفره، وأن غيره تحت مشيئته، فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له، ولا بد من حمل الآية والحديث على من لم يتب، وإلا فالتائب من الشرك مغفور له، فغيره أولى، والآية قد فرقت بينهما. اهـ.

*** قال العلامة العثيمين (رحمته الله):** وهذه الآية أجمع العلماء (رحمته الله) على أنها في التائبين؛ لأن الله تعالى **قال:** ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ولم يُقَيَّد فهي في التائبين؛ أمّا غير التائبين فقد **قال الله تعالى فيهم:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فغير التائبين نَجَزِمُ بأن الله تعالى لا يَغْفِرُ الشُّرْكَ فِي حَقِّهِمْ، وما دون الشُّرْكَ تحت المَشِيئَةِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ.

فَلِلْإِنْسَانِ حَالَانِ:

الحال الأولي: التَّوْبَةُ، فَحُكْمُ ذَنْبِهِ حِينَئِذٍ الْغُفْرَانُ مَهْمَا عَظُمَ الذَّنْبُ.

الحال الثانية: عَدَمُ التَّوْبَةِ، يَعْنِي: بِدُونِ التَّوْبَةِ نَقُولُ: الشُّرْكَ لَا يُغْفَرُ قَطْعًا، وَمَا دُونَ الشُّرْكَ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ. اهـ.

(١) "تفسير سورة الزمر" ص (٣٧٠) عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَفْزَعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر: ٥٣].

المسألة الحادية عشرة

﴿قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].﴾

﴿وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِرُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبا: ٢١].﴾

✕ المعنى غير الصحيح: قد يفهم بعضهم من **قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾** في هاتين الآيتين ونظائرهما أن الله تعالى باختبار الناس يستفيد علمًا لم يكن يعلمه من قبل، وهذا المعنى منكر وباطل.

✓ المعنى الصحيح:

✱ قال الشنقيطي رحمته الله (١): بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون، وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علمًا لم يكن يعلمه **بقوله جل وعلا: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** [آل عمران: ١٥٤] **فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** بعد **قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾** دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئًا لم يكن عالمًا به، ﷻ عن ذلك علوا كبيرا؛ لأن العليم بذات الصدور، غني عن الاختبار.

وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه، ومعنى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالمًا به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس. أما عالم السر والنجوى فهو عالم بكل ما سيكون كما لا يخفى. اهـ.

(١) في "أضواء البيان" عند الآية.

*** قال ابن كثير** رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢-٣] العنكبوت: استفهام إنكار، ومعناه: أن الله ﷻ لا بد أن يبتلي الكافرين ﴿٣﴾. عباد المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثُمَّ الصَّالحونَ، ثُمَّ الأمثلُ، فالأمثلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صِلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَاءِهِ». وهذه الآية **كقوله**: ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ومثلها في سورة براءة، **وقال** في البقرة: ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ ولهذا **قال صاحبنا**: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه.

والله ﷻ يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ إلا لنرى؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود. اهـ.

*** قال العلامة العثيمين** رحمه الله ^(١): **قوله تعالى**: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٣] وهي استقبال بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى

(١) في تفسير الفاتحة والبقرة (٢/ ١١٠).

عَقْبِيَّةٌ ﴿المراد علم ظهور، أو علم يترتب عليه الجزاء؛ لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء حتى يُمتحن العبد، ويُنظر؛ أو علم ظهور - أي علم بأن الشيء حصل، فيعلمه أنه حاصل؛ وأما العلم به قبل وقوعه فهو علم بأنه سيحصل؛ وفرق بين العلم بالشيء أنه سيحصل، والعلم بأنه قد حصل؛ وقد قال بعض أهل المعاني: إن ﴿لَتَعْلَمَ﴾ هنا بمعنى الماضي - أي إلا لعلمنا؛ والمعنى: وما جعلنا القبلية التي كنت عليها إلا لعلمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وهذا - وإن كان له وجه من حيث اللفظ؛ وهو أن يعبر بالمضارع عن الماضي أحياناً - لكنه ضعيف هنا من حيث المعنى؛ إذ لا حكمة من ذلك.

لأنه يكون معنى الآية: وما جعلنا هذا إلا لأننا قد علمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وحينئذ يقال: إذا ما الفائدة؟! لأنه لا يناسب أن الله ما جعل هذه القبلية إلا لأنه قد علم من يبقى على دينه، ومن لا يبقى؛ فالصواب الوجهان الأولان؛ وأحسنهما أن يكون المراد بالعلم هنا الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأنه الواضح وليس فيه تكلف. اهـ.

*** وقال ﷺ ^(١): تعلق علم الله تعالى بالشيء له حالان:**

الحال الأولى: قبل وجوده.

الحال الثانية: بعد وجوده.

فتعلق علم الله تعالى به بعد الوجود يسمى علم ظهور؛ أي: علمه بعد أن ظهر وبان، وعلم الله تعالى قبل وجوده علم تقدير؛ أي: أنه قدر أن يكون وعلم التقدير ثابت بلا شك فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال عالما بكل ما يكون.

(١) في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَتَعْلَمُ مَنْ يُؤْمَرُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سورة سبأ: ٢١].

وإذا قلنا: إن العلم علم تقدير وعلم ظهور. زال الإشكال؛ وصار علم الله تعالى للشيء بعد وقوعه علماً بأنه ظهر ووقع، وعلم الله تعالى قبل وقوعه علماً بأنه سيقع، وفرق بين المتعلقين.

وقيل: إن المراد بالعلم هنا العلم الذي يترتب عليه الجزاء؛ وذلك لا يكون إلا بعد الامتحان، فإن علم الله تعالى بالشيء قبل أن يقع علم لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب؛ لأن المكلف لم يؤمر ولم ينه، فإذا أُمرَ ففعل أو أُمرَ فلم يفعل حينئذ صار مثاباً أو معاقباً، كما **قال** ﷺ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وعلى هذا الوجه يكون علم الله تعالى علمين:

١ - علم معناه: أن الله تعالى عالم بأن هذا الشيء سيقع، ولكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب

٢ - علم يترتب عليه الثواب والعقاب، وذلك لا يكون إلا بعد امتحان المكلف به. وهل يفعل أو لا يفعل؛ يعني هل يمثل أو لا يمثل، فتبين أن الجواب عن هذه المسألة التي ظاهرها تجدد علم الله تعالى: أن العلم الذي يتبين به الخفي؛ لأن الأمر لم يزل ولا يزال أمام الله تعالى واضحاً ظاهراً، **قال** تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبا: ٢١] هنا ضُمَّنت (نَعْلَمَ) معنى (نُمَيِّزُ)؛ ولهذا **قال** تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ يعني: إلا لنميز من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك. اهـ.

المسألة الثانية عشرة

﴿قوله تعالى: ﴿أَمْنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾﴾ [الملك: ١٦] الآية.

× المعنى غير الصحيح: قد يتوهم بعضهم من قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أن السماء أكبر منه تعالى، وأنه داخلها، وأنها تحيط به تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

✓ المعنى الصحيح:

* قال العثيمين رحمته الله (١): كون الله في السماء لا يقتضي أن السماء تحيط به، ومن قال ذلك فهو ضال إن قاله من عنده وكاذب أو مخطئ إن نسبته إلى غيره، فإن كل من عرف عظمة الله تعالى وإحاطته بكل شيء، وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، وأنه يطوي السماء كطي السجل للكتب، فإنه لن يخطر بباله أن شيئاً من مخلوقاته يمكن أن يحيط به.

* وعلى هذا فيخرج كونه (في السماء) على أحد معنيين:

الأول: أن يراد بالسماء العلو فيكون المعنى أن الله في العلو أي في جهة العلو، والسماء بمعنى العلو ثابت في القرآن **قال الله تعالى:** ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنفال: ١١] أي من العلو لا من السماء نفسها، لأن المطر ينزل من السحاب.

الثاني: أن تجعل (في) بمعنى (على) فيكون المعنى أن الله على السماء وقد جاءت (في) بمعنى (على) في مواضع كثيرة من القرآن وغيره **قال الله تعالى:** ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض. اهـ.

(١) كما في "مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" (٤/ ٣٩).

وكذلك **قوله تعالى: ﴿يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾** [المائدة: ٢٦] يعني على الأرض، لا يريد الدخول في جوفها. وكذلك **قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّتُكُمْ فِي جُدُوعٍ أَلْتَلِّ﴾** [طه: ٧١] فوقها يعني: عليها.

✽ **وقال الألباني** رحمه الله عند حديث: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، وذكر أن (في) بمعنى (على)، وبذلك فسرها علماء السلف والخلف، ومنهم: ابن عبد البر في التمهيد، والبيهقي في كتابيه الأسماء والاعتقاد. اهـ.

✽ **وقال** رحمه الله ^(١): أيش معنى ارحموا من في الأرض؟، يعني: الديدان والحشرات التي تعيش في جوف الأرض ولا تستطيعون أن تطولوها بشيء من الرحمة، ما يتبادر هذا المعنى إلى ذهن عربي إطلاقاً، وإنما هنا (في) كهناك (على)، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ»، من على الأرض معكم «يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» أيضاً يرحمكم من في السماء، (في) هنا ليست ظرفية كما هناك في الأرض ليست ظرفية، وإنما هي بمعنى على. اهـ.

✽ **قال العلامة العثيمين** رحمه الله ^(٢): وعلى هذا فيكون الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، كل هذه الأدلة قد تطابقت على أن الله تعالى في السماء، وأنه جل وعلا عالٍ بذاته كما أنه عالٍ بصفاته. ولكن يجب أن يعلم أن كونه في السماء لا يعني أن السماء تظله وأنها محيطة به، فإن الله تعالى أعظم من أن يظله شيء من خلقه، وهو ﷻ غني عما سواه، وكل شيء مفتقر إليه ﷻ، وهو الذي

(١) كما في «موسوعة الألباني» (٥٠٣/٦).

(٢) «فتاوى نور على الدرب» (٢/٤) بترقيم الشاملة آليا.

يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فلا يمكن أن تظله السماء، وعلى هذا فيزول المحذور الذي أظن أنه قد شبه على هذا السائل، بأنه إذا قلنا بأن الله في السماء لزم أن تكون السماء مظلة له ﷻ، وليس الأمر كذلك.

فإن قال قائل: قوله: في السماء، قد يفهم أن السماء تحيط به؛ لأن (في) للظرفية، والمظروف يكون الظرف محيطاً به. فالجواب: أن ذلك ليس بصحيح؛ لأن السماء بمعنى العلو، وأن السماء بمعنى العلو قد ورد في القرآن، كما في **قوله تعالى:** ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] والماء ينزل من السحاب، والسحاب مسخر بين السماء والأرض، فيكون معنى **قوله:** ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: أنزل من العلو، ويكون معنى **قوله:** ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: من في العلو. وهناك وجه آخر بأن نجعل (في) بمعنى (على)، ونجعل السماء هي السماء السقف المحفوظ، ويكون معنى (مِّنْ فِي السَّمَاءِ) أي: من على السماء، وإذا كان عالياً عليها فلا يلزمها أن تكون محيطة به. ولا يمكن أن تكون محيطة به.

و(في) تأتي بمعنى (على)، كما في **قوله تعالى:** ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي﴾ [لقمان: ١٠] أي: على الأرض، وكما في **قوله تعالى** عن فرعون: ﴿وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل، بكل هذا يزول الإشكال والوهم الذي قد يعترى من لم يتدبر دلالة الكتاب والسنة في هذه المسألة العظيمة. ولا ريب أن من أنكر أن الله في السماء فهو مكذب بالقرآن والسنة وإجماع السلف، فعليه أن يتوب إلى الله ﷻ، وأن يتدبر دلالة الكتاب والسنة على وجه مجرد عن الهوى، ومجرد عن

التقليد، حتى يتبين له الحق، ويعرف أن الله ﷻ أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته. اهـ.

*** وقال ﷻ^(١): قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ**

﴿الملك: ١٦﴾] فيتهم واهم أن الله تعالى داخل السماء، وأن السماء تحيط به كما لو قلنا: فلان في الحجرة فإن الحجرة محيطة به، فينفي بناء على هذا الوهم كون الله تعالى في السماء ويقول: إن الذي في السماء ملكه وسلطانه... ونحو ذلك.

👉 ومنشأ هذا الوهم ظنه أن (في) التي للظرفية تكون بمعنى واحد في جميع مواردّها، وهذا ظن فاسد؛ فإن (في) يختلف معناها بحسب متعلقها؛ فإنه يفرق بين كون الشيء في المكان، وكون العرض في الجسم، وكون الوجه في المرأة، وكون الكلام في الورق المكتوب فيه، فلو قيل: هل العرش في السماء أو في الأرض؟ ل قيل: في السماء؛ مع أن العرش أكبر من السماء كثيراً.

*** وعلى هذا فيخرج قوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ على أحد وجهين:**

- إما أن تكون السماء بمعنى العلو، فإن السماء يراد بها العلو كما في **قوله**

تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النمل: ٦٠] والمطر ينزل من السحاب المسخر

بين السماء والأرض لا من السماء نفسها، فيكون معنى كونه تعالى في السماء أنه في العلو المطلق فوق جميع المخلوقات، وليس هناك ظرف وجودي يحيط به إذ ليس فوق العالم شيء سوى الله تعالى.

(١) كما في "تقريب التدمرية" ص (٦٧).

- وإما أن تكون (في) بمعنى (على) كما جاءت بمعناها في مثل **قوله تعالى:**
﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧]؛ أي على الأرض، **وقوله** عن فرعون:
﴿وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُذُوعٍ﴾ [طه: ٧١]؛ أي على جذوع النخل، وعلى هذا فيكون معنى
قوله تعالى: ﴿أَمْ نَتَمَنَّكَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]؛ أي على السماء أي فوقه، والله تعالى
فوق السموات وفوق كل شيء. اهـ.

*** قال شيخ الإسلام رحمته الله (١):** وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما
أخبر به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة، من أنه سبحانه
فوق سماواته على عرشه على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم
عاملون، كما جمع بين ذلك في **قوله:** ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وليس معنى **قوله:** ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجهه
اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق،
بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء، وهو مع
المسافر وغير المسافر أينما كان، وهو سبحانه فوق عرشه رقيب على خلقه
مهيمن عليهم مطلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته. وكل هذا الكلام
الذي ذكره الله -من أنه فوق العرش وأنه معنا- حق على حقيقته لا يحتاج إلى
تحريف.

(١) «العقيدة الواسطية» بتعليق ابن مانع ص (١٧).

ولكن يصاب عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: (في السماء) أن السماء ثقله أو تظله وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان فإن الله قد وسع كرسيه السماوات والأرض وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿وَمَنْ عَائِلَتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. اهـ.

المسألة الثالثة عشرة

❦ حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، ثُمَّ يَنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، فَيَذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وَهُوَ لَا فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]. متفق عليه ^(١).

❧ المعنى غير الصحيح: ربما توهم بعضهم أن الذي يذبح هو ملك الموت وهذا باطل وغير صحيح.

✓ المعنى الصحيح:

الذي يذبح هو الموت والموت زوال الحياة، وكل نفس ذائقة الموت، وهو أمر معنوي غير محسوس بالرؤية، ولكن الله تعالى يجعله شيئاً مرئياً مجسماً، وَيُذْبَحُ بين الجنة والنار كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتقدم.

❧ قال الحافظ ابن حجر رحمته الله ^(٢): قال القاضي أبو بكر بن العربي: استشكل هذا الحديث لكونه يخالف صريح العقل؛ لأن الموت عرض، والعرض لا ينقلب جسماً، فكيف يذبح؟

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) في «الفتح» (١١/٤٢١).

فأنكرت طائفة صحة هذا الحديث ودفعته. وتأولته طائفة فقالوا: هذا تمثيل، ولا ذبح هناك حقيقة. وقالت طائفة: بل الذبح على حقيقته، والمذبح متولي الموت، وكلهم يعرفه؛ لأنه الذي تولى قبض أرواحهم. قلت وارتضى هذا بعض المتأخرين.

إلى أن قال: وقال غيره: لا مانع أن ينشئ الله من الأعراض أجسادا يجعلها مادة لها، كما ثبت في "صحيح مسلم" في حديث إن البقرة وآل عمران يجيئان كأنهما غمامتان ونحو ذلك من الأحاديث. اهـ.

* قال ابن أبي العز رحمته الله^(١): الموت صفة وجودية، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم، **قال تعالى:** ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. والعدم لا يوصف بكونه مخلوقاً.

وفي الحديث: «أَنَّهُ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ». وهو وإن كان عرضاً فالله تعالى يقبله عيناً، كما ورد في العمل الصالح: أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة وورد في القرآن: أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون، الحديث أي قراءة القارئ وورد في الأعمال: أنها توضع في الميزان، والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الأعراض وورد في سورة البقرة وآل عمران: أنهما يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف. وفي الصحيح أن أعمال العباد تصعد إلى السماء. اهـ.

(١) في "شرح الطحاوية".

المسألة الرابعة عشرة

حديث حَنْظَلَةُ الْأُسَيْدِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: وَكَانَ مِنْ كُتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَاَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدَكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرْفِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. رواه مسلم (٢٧٥٠).

✖ المعنى غير الصحيح: قد يفهم بعضهم من قوله: «ولكن ساعة وساعة» أنها ساعة في الطاعة وساعة في المعصية، كما يقول بعضهم: ساعة لربك وساعة لقلبك وهذا المعنى باطل وغير صحيح.

✓ المعنى الصحيح:

✱ بوب الإمام النووي رحمته الله على هذا الحديث فقال: [باب فضل دوام الذكر، والفكر في أمور

الآخرة، والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات، والانشغال بالدنيا].

✽ **وقال النووي** رحمته الله: خاف حنظلة أنه منافق حيث كان يحصل له الخوف في مجلس النبي ﷺ، ويظهر عليه ذلك مع المراقبة والفكر والإقبال على الآخرة، فإذا خرج اشتغل بالزوجة والأولاد ومعاش الدنيا.

✽ **وقال** "صاحب المرقاة": ساعة تؤدون حقوق ربكم، وساعة الفتور تقضون حظوظ أنفسكم، ويحتمل أن يكون قوله: «سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ» للترخيص، أو للحفاظ؛ لئلا تسأم النفس عن العبادة. اهـ.

✽ **قال العثيمين** رحمته الله^(١): «سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ» يعني ساعة للرب ﷻ، وساعة مع الأهل والأولاد، وساعة للنفس حتى يعطي الإنسان لنفسه راحتها، ويعطي ذوي الحقوق حقوقهم.

وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها، أن الله ﷻ له حق فيعطي حقه ﷻ، وكذلك للنفس حق فتعطى حقها، وللأهل حق فيعطون حقوقهم، وللزوار والضيوف حق فيعطون حقوقهم، حتى يقوم الإنسان بجميع الحقوق التي عليه على وجه الراحة، ويتعبد لله ﷻ براحة، لأن الإنسان إذا أثقل على نفسه وشدد عليها مل وتعب، وأضاع حقوقاً كثيرة.

وهذا كما يكون في العبادة وفي حقوق النفس والأهل والضيف، يكون كذلك أيضاً في العلوم، فإذا طلب الإنسان العلم ورأى في نفسه مللاً في مراجعة كتاب ما، فلينتقل إلى كتاب آخر، وإذا رأى من نفسه مللاً من دراسة فن معين، فإنه ينتقل إلى دراسة فن آخر، وهكذا يريح نفسه، ويحصل علماً كثيراً. أما إذا أكره

(١) في "شرح رياض الصالحين".

نفسه على الشيء حصل له من الملل والتعب ما يجعله يسأم وينصرف، إلا ما شاء الله. اهـ.

👉 فيجب أن تكون هذه الساعات محكومة بميزان الشرع. ومما يبين ذلك حديث أبي جحيفة في قصة سلمان الفارسي مع أبي الدرداء رضي الله عنه، «وإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا». رواه البخاري (١٩٦٨).

- والإنسان حياته كلها لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

المسألة الخامسة عشرة

❦ **حديث** ابن مُحَيْرِيزٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جُمُعَةَ -رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ-: حَدَّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: نَعَمْ، أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا جَيِّدًا، تَغْدَيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا، أَسْلَمْنَا مَعَكَ، وَجَاهَدْنَا مَعَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْني»^(١).

❦ **وحدِيث** عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمٌ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ»^(٢).

وذكر له شاهداً من حديث ابن مسعود ﷺ عند الطبراني، وآخر من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً، أخرجه أبو داود، والترمذي^(٣).

✕ **المعنى غير الصحيح:** قد يفهم بعضهم من هذا أفضلية غير الصحابة على الصحابة مطلقاً.

(١) رواه أحمد، وصححه العلامة الوادعي رحمه الله في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١٢١٥).

(٢) أخرجه ابن نصر في «السنة»، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٨٩٢ / ١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (١٧٧ / ٢).

٧ المعنى الصحيح:

*** قال الحافظ رحمته الله (١):** هذا الحديث لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة؛ لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي رحمته الله من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد، فهذه الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة. اهـ.

*** قال ابن العربي رحمته الله (٢):** وخلاصته أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد، ولا يدانيهم فيها بشر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم. اهـ.

*** قال ابن كثير رحمته الله (٣)** تعليقا على حديث أبي جمعة المتقدم: وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوجادة التي اختلف فيها أهل الحديث، كما قررته في أول شرح البخاري؛ لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجرا من هذه الحيشة لا مطلقا. اهـ.

*** قال العثيمين رحمته الله:** وهذه المسألة أشار إليها العلامة ابن القيم في "النونية" وهي: أن الإنسان إذا تميّز بخصيصة لا يلزم منه أن يكون أفضل على الإطلاق.

(١) في "الفتح" (٧ / ٧).

(٢) في "العواصم".

(٣) في "تفسيره" (١ / ١٦٦).

مثاله: قول الرسول ﷺ في غزوة خيبر: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، فلما أصبح أعطى ﷺ الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فهنا إعطاؤه ﷺ الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه هل يلزم منه أن يكون أفضل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؟ والجواب: لا يلزم.

والفضل منه مطلق ومنه مقيد: ومثاله أيضًا: ما جاء في حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بَلْ ائْتَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْكُمْ» رواه الترمذي (٣٠٥٨). والشاهد هنا في قوله ﷺ: «أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ».

ولا يلزم من هذا الفضل أن يكون أفضل من الصحابة رضي الله عنهم، فيجب التفريق بين الفضل المطلق والفضل المقيد. اهـ.

ويتسدل كذلك بحديث: «إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفيه: «فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِسَاقِ الْعَرْشِ». وغيرها من الأدلة في فضائل بعض الأنبياء، ولا يلزم منها أفضليتهم على النبي ﷺ.

👉 **فيكون المعنى:** أنه يعطى أجر خمسين من الصحابة في هذه المسألة وهي مسألة التمسك بالسنة في آخر الزمان عند اشتداد الغربة وتسلط الأعداء، فهذه أفضلية مقيدة في هذه الخصلة، لا الأفضلية المطلقة، والحمد لله.

المسألة السادسة عشرة

حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ». متفق عليه^(١).

✖ المعنى غير الصحيح: ربما فهم بعض الناس من قوله: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» أن العمل لا قيمة له في دخول الجنة، وأنه يستوي في دخول الجنة من يعمل ومن لا يعمل.

✓ المعنى الصحيح:

✱ قال النووي رحمته الله^(٢): وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله: ﴿وَذَلِكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة فلا يعارض هذه الأحاديث، بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله. فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث، ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة والله أعلم. اهـ.

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) في «شرح مسلم».

*** وقال الحافظ رحمه الله (١):** فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] وحديث: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» فالجواب: أن المنفي في الحديث دخولها بالعمل المجرد عن القبول، والمثبت في الآية دخولها بالعمل المتقبل. والقبول إنما يحصل برحمة الله، فلم يحصل الدخول إلا برحمة الله. اهـ.

*** قال شيخ الإسلام رحمه الله (٢):** ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قبح في الشرع. ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب؛ فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيا في حصول النبات، بل لا بد من ريح مربية بإذن الله، ولا بد من صرف الانتفاء عنه؛ فلا بد من تمام الشروط وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء الله وقدره. وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم من أنزل ولم يولد له؛ بل لا بد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيته في الرحم، وسائر ما يتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع.

وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب ولهذا قال النبي ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ». وقد قال الله:

(١) في "فتح الباري" (١/ ٧٨).

(٢) كما في "مجموع الفتاوى" (٨/ ٧٠).

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] فهذه باء السبب أي: بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ بقاء المقابلة، كما يقال: اشتريت هذا بهذا، أي: ليس العمل عوضاً وثمناً كافياً في دخول الجنة، بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته، فبِعَفْوِهِ يَمْحُو السَّيِّئَاتِ، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات.

وفي هذا الموضع ضل طائفتان من الناس:

١- فريق آمنوا بالقدر وظنوا أن ذلك كاف في حصول المقصود، فأعرضوا عن الأسباب الشرعية، والأعمال الصالحة، وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله ورسله ودينه.

٢- وفريق أخذوا يطلبون الجزاء من الله، كما يطلبه الأجير من المستأجر، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم، وكما يطلبه الممالك، وهؤلاء جهال ضلال؛ فإن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً به، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وهو سبحانه كما قال: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني» فالملك إذا أمر مملوكه بأمر أمرهم لحاجته إليهم، وهم فعلوه بقوتهم التي لم يخلقها لهم، فيطالبون بجزاء ذلك، والله تعالى غني عن العالمين، فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساءوا فلها، لهم ما كسبوا وعليهم ما اكتسبوا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. اهـ.

* وقال ﷺ^(١): إن الله علم الأمور وكتبها على ما هي عليه، فهو سبحانه قد كتب أن فلاناً يؤمن ويعمل صالحاً فيدخل الجنة، وفلاناً يعصي ويفسق فيدخل

(١) كما في "مجموع الفتاوى" (٨/ ٢٦٥).

النار، كما علم وكتب أن فلاناً يتزوج امرأة ويطؤها فيأتيه ولد، وأن فلاناً يأكل ويشرب فيشبع ويروى، وأن فلاناً يبذر البذر فينبت الزرع.

فمن قال: إن كنت من أهل الجنة فأنا أدخلها بلا عمل صالح كان قوله قولاً باطلاً متناقضاً؛ لأنه علم أنه يدخل الجنة بعمله الصالح، فلو دخلها بلا عمل كان هذا مناقضاً لما علمه الله وقدره، ومثال ذلك من يقول: أنا لا أطأ امرأة فإن كان قد قضى الله لي بولد فهو يولد فهذا جاهل، فإن الله إذا قضى بالولد قضى أن أباه يطأ امرأة فتحبل فتلد، وأما الولد بلا حبل ولا وطء فإن الله لم يقدره ولم يكتبه، كذلك الجنة إنما أعدها الله للمؤمنين فمن ظن أنه يدخل الجنة بلا إيمان كان ظنه باطلاً، وإذا اعتقد أن الأعمال التي أمر الله بها لا يحتاج إليها، ولا فرق بين أن يعملها أو لا يعملها كان كافراً، والله قد حرم الجنة على الكافرين، فهذا الاعتقاد يناقض الإيمان الذي لا يدخل صاحبه النار. اهـ.

✽ قال الشيخ الألباني رحمته الله^(١): اعلم أن هذا الحديث قد يشكل على بعض الناس، ويتوهم أنه مخالف **لقوله تعالى**: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ونحوها من الآيات والأحاديث الدالة على أن دخول الجنة بالعمل، وقد أجيب بأجوبة أقربها إلى الصواب: أن (الباء) في قوله في الحديث: «بعمله» هي باء الثمنية، و(الباء) في الآية هي باء السببية، أي أن العمل الصالح سبب لا بد منه لدخول الجنة، ولكنه ليس ثمناً لدخول الجنة، وما فيها من النعيم المقيم والدرجات. اهـ.

(١) كما في "موسوعة الألباني في العقيدة" (٩/ ٥٥٤).

المسألة السابعة عشرة

حديث أنس رضي الله عنه، أَنَّ الرَّبِيعَ عَمَّتُهُ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَعَرَضُوا الْأَرْضَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَوْا، إِلَّا الْقِصَاصَ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرَّبِيعِ؟ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ». فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ». متفق عليه ^(١).

✕ المعنى غير الصحيح: ربما فهم بعضهم من قول أنس بن النضر: (والله لا تكسر ثنية الربيع) أن ذلك اعتراض منه على رسول الله ﷺ عندما أمر بالقصاص وهذا معنى باطل منكر.

✓ المعنى الصحيح:

* قال النووي رحمته الله ^(٢): وأما قوله: والله لا يقتص منها فليس معناه رد حكم النبي ﷺ، بل المراد به الرغبة إلى مستحق القصاص أن يعفو، وإلى النبي ﷺ في الشفاعة إليهم في العفو. وإنما حلف ثقة بهم أن لا يحثوه، أو ثقة بفضل الله ولطفه أن لا يحثه، بل يلهمهم العفو. وأما قوله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ» معناه لا يحثه؛ لكرامته عليه. اهـ.

(١) رواه البخاري (٤٥٠٠)، ومسلم (١٦٧٥).

(٢) في «شرح مسلم» (١١/١٦٣).

*** قال العلامة العثيمين رحمته الله ^(١):** أقسم بهذا ليس ذلك ردًا لحكم الله ورسوله، ولكنه يحاول بقدر ما يستطيع أن يتكلم مع أهلها حتى يعفوا ويأخذوا الدية، أو يعفوا مجانًا، كأنه واثق من موافقتهم، لا ردًا لحكم الله ورسوله، فيسر الله رحمته الله؛ فعفى أهل الجارية عن القصاص، فقال النبي رحمته الله: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ». وهنا لا شك أن الحامل لأنس بن النضر هو قوة رجائه بالله رحمته الله، وأن الله سيسر من الأسباب ما يمنع كسر ثنية أخته الربيع. اهـ.

*** وقال رحمته الله ^(٢):** فأقسم ألا تكسر وليس مراده الاعتراض على حكم النبي رحمته الله، لكنه أراد التفاؤل وأحسن الظن بالله، حيث ظن أن الله تعالى سيجعل لها فرجًا ومخرجًا، وإلا من المعلوم أنه لو كان قصده الامتناع والاعتراض والإباء عن تنفيذ حكم الله ورسوله لكان على خطر عظيم ولما أبره الله رحمته الله لكن مراده التفاؤل وإحسان الظن بالله رحمته الله. اهـ.

(١) في «شرح رياض الصالحين» (٣/٤٨).

(٢) في «فتح ذي الجلال والإكرام» (٥/٢٤٧).

المسألة الثامنة عشرة

﴿قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ فَدَجَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾﴾ [يوسف: ١٠٠].

✖ المعنى غير الصحيح: قد يفهم بعضهم من ذلك جواز السجود لمخلوق أو يفهم مخالفة نبي الله يعقوب حيث سجد لمخلوق.

✓ المعنى الصحيح:

* قال ابن كثير رحمته الله: ﴿قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريريه. ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً. ﴿وَقَالَ يَأْبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ﴾ أي: التي كان قصها على أبيه. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وقد كان هذا سائغا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصا بجناب الرب تعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: «إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله فقال: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا، أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا».

وفي حديث آخر: أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحى الذي لا يموت». والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم؛ ولهذا خروا له سجداً. اهـ.

*** قال العلامة ابن باز رحمه الله (١):** ونص القرآن أن يوسف ﷺ رفع أبويه على العرش وهما: أبوه وأمه لا خالته، بل أبوه وأمه، لأن الله سبحانه **قال**: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾، وكانت السجدة ذلك الوقت مباحة للإكرام والتحية وليست للعبادة، وكما سجد الملائكة لآدم إكراماً وتعظيماً لا عبادة، فهذه السجدة ليست من باب العبادة، بل هي من باب التحية والإكرام، وهي جائزة في شرع من قبلنا، ولكن في شريعة محمد ﷺ ممنوع ذلك؛ ولهذا ثبت عنه ﷺ أنه قال: «وَلَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا، أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»، لعظم حقه عليها. وبين أن السجود لله ﷻ، فلا يسجد إلا لله ﷻ، **وقال** ﷺ: **﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾** [النجم: ٦٢]، **وقال** في سورة اقرأ: **﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾** [العلق: ١٩].

فالسجود لله وحده، وشريعة محمد ﷺ هي أكمل الشرائع وأتمها، فلا يجوز فيها السجود لغير الله لا تحية ولا عبادة، أما العبادة فلا تصح إلا لله وحده في جميع الشرائع؛ لأن الله جل وعلا **قال**: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

(١) «فتاوى نور على الدرب» بعناية الشويعر (٤/ ١١١).

إِحْسَنَّا ﴿[الإسراء: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾
[الذاريات: ٥٦]. اهـ.

* يقول ابن عطية رحمته الله^(١) في معنى السجود: واختلف في هذا السجود، ف قيل: كان كالمعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض، وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه، مما كان سيرة تحياتهم للملوك في ذلك الزمان، وأجمع المفسرون أن ذلك السجود -على أي هيئة كان- وإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم. اهـ.

(١) كما في "تفسيره" (٩/ ٣٧٧-٣٧٨).

المسألة التاسعة عشرة

جاء عن الزهري، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَوْفَلٍ بْنَ الْحَارِثِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، حَدَّثَهُ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ بْنَ رَبِيعَةَ بْنَ الْحَارِثِ، حَدَّثَهُ قَالَ: اجْتَمَعَ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَا: وَاللَّهِ، لَوْ بَعَثْنَا هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ - قَالَا لِي وَلِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَاهُ، فَأَمَرَهُمَا عَلَى هَذِهِ الصَّدَقَاتِ، فَأَذِيَا مَا يُؤْذِي النَّاسَ، وَأَصَابَا مِمَّا يُصِيبُ النَّاسَ، قَالَ فَبَيْنَمَا هُمَا فِي ذَلِكَ جَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا، فَذَكَرَا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: لَا تَفْعَلَا، فَوَاللَّهِ، مَا هُوَ بِفَاعِلٍ، فَاَنْتَحَاهُ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَالَ: وَاللَّهِ، مَا تَصْنَعُ هَذَا إِلَّا نَفَاسَةً مِنْكَ عَلَيْنَا، فَوَاللَّهِ، لَقَدْ نِلْتَ صِهْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا نَفْسَنَاهُ عَلَيْكَ، قَالَ عَلِيُّ: أَرْسَلُوهُمَا، فَاَنْطَلَقَا، وَاضْطَجَعَ عَلِيُّ، قَالَ: فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ سَبَقْنَاهُ إِلَى الْحُجْرَةِ، فَقُمْنَا عِنْدَهَا، حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِأَذَانِنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَخْرِجَا مَا تُصَرَّرَانِ» ثُمَّ دَخَلَ وَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَهُوَ يَوْمِئِذٍ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، قَالَ: فَتَوَاكَلْنَا الْكَلَامَ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَحَدُنَا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَ أَكْبَرُ النَّاسِ وَأَوْصَلُ النَّاسِ، وَقَدْ بَلَغْنَا النِّكَاحَ، فَجِئْنَا لِنُؤَمِّرَنَّكَ عَلَى بَعْضِ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ، فَنُؤْذِي إِلَيْكَ كَمَا يُؤْذِي النَّاسَ، وَنُصِيبُ كَمَا يُصِيبُونَ، قَالَ: فَسَكَتَ طَوِيلًا حَتَّى أَرَدْنَا أَنْ نُكَلِّمَهُ، قَالَ: وَجَعَلَتْ زَيْنَبُ تُلْمِعُ عَلَيْنَا مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ أَنْ لَا تُكَلِّمَاهُ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لِأَلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، ادْعُوا لِي مَحْمِيَةً - وَكَانَ عَلَى الْخُمْسِ - وَنَوْفَلُ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» قَالَ: فَجَاءَاهُ، فَقَالَ لِمَحْمِيَةٍ: «أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ ابْنَتَكَ» - لِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ - فَأَنْكَحَهُ، وَقَالَ لِنَوْفَلِ بْنِ الْحَارِثِ: «أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ ابْنَتَكَ» - لِي - فَأَنْكَحَنِي وَقَالَ لِمَحْمِيَةٍ: «أَصْدِقْ

عَنْهُمَا مِنَ الْخُمْسِ كَذَا، وَكَذَا». قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَلَمْ يُسَمِّهِ لِي. رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٠٧٢).

✕ المعنى غير الصحيح: ربما فهم بعضهم من قوله: «أوساخ الناس» أن في هذا تحقيراً للزكاة وهي فريضة، وهذا المعنى باطل ومنكر.

✓ المعنى الصحيح:

* قال النووي رحمته الله ^(١): ومعنى «أوساخ الناس» أنها تطهير لأموالهم ونفوسهم، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] فهي كغسالة الأوساخ. اهـ.

* قال العلامة العثيمين رحمته الله ^(٢): ومن فوائد الحديث: جواز وصف الزكاة بالأوساخ، لكن هذا مشكل كيف نصفها بأنها أوساخ الناس وهي ركن من أركان الإسلام، وهل في الإسلام شيء وسخ مشكل هذا؟ المسألة ثقيلة ليست هينة هي بالنسبة لإخراجها وإيتائها لأصنافها تعد ركنًا من أركان الإسلام، تزكي النفس وتطهرها، وتلحقها بالكرماء والمحسنين، وبالنسبة للمعطي نقول: إنه وسخ؛ لأنه هو الشيء الذي طهر به المال، فهو كالماء الذي طهرت به النجاسة، ولا ينبغي للإنسان أن يأخذها إلا وقت الحاجة، كما لو اضطر الإنسان إلى الماء النجس يشربه! اهـ.

(١) كما في «شرح مسلم» (٧/ ١٧٩).

(٢) في «فتح ذي الجلال والإكرام» (٣/ ١٥٢).

المسألة العشرون

﴿قوله تعالى:﴾ **﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾** [الزمر: ٥٦].

✕ **المعنى غير الصحيح:** ربما فهم بعضهم من قوله: ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] إثبات صفة الجنب لله تعالى وهذا المعنى غير صحيح.

✓ **المعنى الصحيح:**

* **قال ابن جرير** رحمه الله عند تفسير هذه الآية: وقوله: ﴿عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]؛ يقول: على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به، وقصرت في الدنيا في طاعة الله. اهـ.

* **قال شيخ الإسلام** رحمته الله ^(١): وأما قولهم: (وجنب) فإنه لا يعرف عالم مشهور عند المسلمين، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين، أثبتوا لله جنباً نظير جنب الإنسان، وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق، كقوله: (بيت الله) و(ناقة الله) و(عباد الله)، بل وكذلك (روح الله) عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم. ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره، مثل كلام الله وعلم الله، ويد الله ونحو ذلك، كان صفة له.

(١) كما في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٤/ ٤١٥).

وفي القرآن ما يبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان فإنه قال:
﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

والتفريط ليس في شيء من صفات الله ﷻ. والإنسان إذا قال: فلان قد فرط في جنب فلان أو جانبه، لا يريد به أن التفريط وقع في شيء من نفس ذلك الشخص، بل يريد به أنه فرط في جهته وفي حقه.

فإذا كان هذا اللفظ إذا أضيف إلى المخلوق لا يكون ظاهره أن التفريط في نفس جنب الإنسان المتصل بأضلاعه، بل ذلك التفريط لم يلاصقه، فكيف يظن أن ظاهره في حق الله أن التفريط كان في ذاته؟

وجنب الشيء وجانبه، قد يراد به انتهاه وحده، ويسمى جنب الإنسان جنباً بهذا الاعتبار، **قال تعالى:** ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، **وقال تعالى:** ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ».

وإذا قُدِّر أن الإضافة هنا تتضمن صفة الله، كان الكلام في هذا كالكلام في سائر ما يضاف إليه تعالى من الصفات، وفي التوراة من ذلك نظير ما في القرآن. اهـ.

✽ قال ابن القيم رحمه الله ^(١): قال عثمان بن سعيد الدارمي في "نقضه على المريسي": "وَدَّعَى الْمُعَارِضُ زُورًا عَلَى قَوْمٍ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي تَفْسِيرِ **قَوْلِ اللَّهِ**: ﴿يَحْسَرَتُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] إِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِذَلِكَ الْجَنْبَ الَّذِي هُوَ الْعَضْوُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ.

قال الدارمي: فيقال لهذا المعارض: ما أرخص الكذب عندك وأخفّه على لسانك! فإن كنت صادقًا في دعواك فأشرب بها إلى أحد من بني آدم قاله، وإلا فلم تُشنع بالكذب على قوم هم أعلم بهذا التفسير منك، وأبصر بتأويل كتاب الله منك ومن إمامك؟ إنما تفسيرها عندهم تحسر الكفار على ما فرطوا في الإيمان والفضائل التي تدعو إلى ذات الله، واختاروا عليها الكفر والسخرية بأولياء الله فسمّاهم السّاحرين، فهذا تفسير الجنب عندهم، فمن أنباك أنهم قالوا جنب من الجنوب؟ فإنه لا يجهل هذا المعنى كثير من عوام المسلمين، فضلًا عن علمائهم، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (الكذب مجانب للإيمان). وقال ابن مسعود: (لا يجوز من الكذب جد ولا هزل). وقال الشعبي: (من كان كذابًا فهو منافق).

✽ وتوجيه ذلك أن الله **قال**: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرَتُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ ^(٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ^(٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ^(٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ^(٥٩) [الزمر: ٥٦-٥٩] فهذا إخبار عما تقوله هذه النفس الموصوفة بما وُصفت به، وعامة هذه النفوس لا تعلم أن الله جنبًا، ولا

(١) في "الصواعق المرسلة" (١/ ٨٠).

تقر بذلك كما هو الموجود منها في الدنيا، فكيف يكون ظاهر القرآن أن الله أخبر عنهم بذلك؟ **وقد قال عنهم:** ﴿يَحْسَرَتُنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ والتفريط فعلٌ أو تركٌ فعل، وهذا لا يكون قائماً بذات الله، لا في جنب ولا في غيره، بل يكون منفصلاً عن الله، وهذا معلوم بالحس والمشاهدة. وظاهر القرآن يدل على أن قول القائل: ﴿يَحْسَرَتُنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ ليس أنه جعل فعله أو تركه في جنب يكون من صفات الله وأبعاضه، فأين في ظاهر القرآن ما يدل على أنه ليس لله إلا جنبٌ واحدٌ يعني به الشُّق؟ اهـ.

فائدة: ومن هؤلاء الذين جعلوا (الجنب) صفةً من صفات الله الذاتية صديق حسن خان رحمته في كتابه "قطف الثمر" ص (٦٧) وأخطأ رحمته.

فائدة أخرى: ذكر ابن الجوزي رحمته في "زاد المسير" عند تفسير الآية السابقة خمسة أقوال لجنب الله: طاعة الله، وحق الله، وأمر الله، وذكر الله، وقرب الله.

المسألة الواحدة والعشرون

﴿قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾﴾ [الزخرف: ٥٥].

✕ المعنى غير الصحيح: ربما فهم بعضهم من الآية إثبات الحزن والندم لله سبحانه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

✓ المعنى الصحيح:

* قال العلامة العثيمين رحمته الله ^(١): ﴿فَلَمَّا أَتَقَمْنَا﴾: نحن نعرف أن الأسف هو الحزن والندم على شيء مضى على النادم لا يستطيع رفعه، فهل يوصف الله بالحزن والندم؟ الجواب: لا.

ونجيب عن الآية بأن الأسف في اللغة له معنيان:

المعنى الأول: الأسف بمعنى الحزن، مثل قول الله تعالى عن يعقوب: ﴿يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَأَبِصْرَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤].

المعنى الثاني: الأسف بمعنى الغضب، فيقال: أسف عليه، بمعنى: غضب عليه.

والمعنى الأول: ممتنع بالنسبة لله ﷻ. والثاني: مثبت لله، لأن الله تعالى وصف به نفسه، فقال: ﴿فَلَمَّا أَتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. اهـ.

وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ قَالُوا بِئْسَ مَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]. قال ابن كثير رحمته الله: يخبر تعالى أن موسى، ﷺ، رجع إلى

(١) في "شرح الواسطية" (١/ ٢٧١).

قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف. قال أبو الدرداء (الأسف): أشد الغضب. اهـ.

*** وقال العثيمين رحمته الله (١):** فإن قال قائل: هل الغضبُ صفةٌ مدحٍ أو صفةٌ عيبٍ؟ فالجوابُ: الغضبُ صفةٌ مدحٍ في محلّها؛ لأنّه يدلُّ على قوة الغاضِبِ وقُدْرَتِهِ على الانتقام، بخلافِ الحزنِ، ولهذا لا يُوصَفُ اللهُ بالحزنِ؛ لأنّه صفةٌ ذمٌّ، وإنما يوصَفُ بالغضبِ بما يدلُّ على قدرته على الانتقام، انظر مثلاً إلى رجلٍ أساء إليه ابنه، فإنه يغضبُ ويؤدّبُه، وانظر إلى شخصٍ ضعيفٍ أساء إليه رجلاً قويّاً فإنه يحزنُ، ولا يستطيعُ أن يغضبَ، ماذا يفعلُ إذا غَضِبَ؟ فرجلٌ مثل الجَمَلِ بقوة الفيلِ يضربُ شخصاً يكونُ قَدَرُ فَخِذِهِ، وضعيفاً، هذا يغضبُ؟ وماذا يفعلُ له غضبه؟ فالغضبُ لا يكونُ إلا من قادرٍ على الانتقام، ولهذا نقولُ: إن الغضبَ في محلّه صفةٌ مدحٍ. اهـ.

(١) في "تفسير سورة الشورى" ص (١٦٣).

المسألة الثانية والعشرون

﴿قوله تعالى:﴾ **يَحْزَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴿٣٠﴾

[يس: ٣٠].

✕ **المعنى غير الصحيح:** ربما فهم بعضهم من **قوله تعالى:** ﴿يَحْزَرُهُ﴾ إثبات التوجع والتحسر لله سبحانه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

✓ **المعنى الصحيح:**

* **قال ابن جرير** رحمته الله: القول في تأويل **قوله تعالى:** ﴿يَحْزَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: يا حسرة من العباد على أنفسهم، وتندما وتلهفا في استهزائهم برسول الله، ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وذكر أن ذلك في بعض القراءات: ﴿يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾. اهـ.

* **وقال ابن كثير** رحمته الله: قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس في **قوله تعالى:** ﴿يَحْزَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي يا ويل العباد، وقال قتادة: ﴿يَحْزَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي: يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله، وفي بعض القراءات: يا حسرة العباد على أنفسهم، ومعنى هذا يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي يكذبونه ويستهزئون به ويمجدون ما أرسل به من الحق. اهـ.

* **تنبيه:** وجد في بعض النسخ من "تفسير السعدي" رحمته الله قوله عند الآية: ﴿يَحْزَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ من سورة يس، قال: (قال الله متوجعا للعباد)، وهذه العبارة خطأ، فقال بعضهم: أنها تصحفت من كلمة مترحما، وأصل الكلام (قال الله

مترحماً للعباد). وأثبتها بعضهم، وعلى فرض ثبوتها عن الإمام السعدي رحمه الله، فنقول: أخطأ رحمه الله، وليس بمعصوم، وهو إمام من أئمة السنة لا ينقص ذلك من منزلته وفضله، وهو من أعظم من قرر منهج السلف في كتبه ودعوته وحياته.

المسألة الثالثة والعشرون

حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «قال: سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلَّا وَاحِدًا، سَاقِطًا أَحَدُ شَقِيئِهِ»، فقال النبي ﷺ: «لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ». رواه البخاري (٣٤٢٤).

✖ المعنى غير الصحيح: ربما توهم بعضهم من قوله: «فلم يقل إن شاء الله» أنه ترك ذلك عمدًا، وهذا المعنى غير صحيح.

✓ المعنى الصحيح: يبين هذا الحديث ما جاء في الرواية الأخرى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليه السلام: لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ بِمِائَةِ امْرَأَةٍ، تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: قُلْ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَأَطَافَ بِهِنَّ، وَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً نِصْفَ إِنْسَانٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ قَالَ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ أَرْجَى لِحَاجَتِهِ». رواه البخاري (٥٢٤٢).

وكذلك في الرواية الأخرى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيُّ اللَّهِ: لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْنِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ -أَوِ الْمَلِكُ-: قُلْ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةً مِنْ نِسَائِهِ إِلَّا وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَوْ قَالَ: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ». رواه مسلم (١٦٥٤).

✍ فذكر فيهما أنه نسي أن يقول إن شاء الله.

✱ قال النووي رحمته الله: وقوله: «نُسي» ضبطه بعض الأئمة بضم النون وتشديد السين، وهو ظاهر حسن والله أعلم. اهـ.

✱ قال الحافظ رحمته الله^(١): وفيه جواز السهو على الأنبياء، وأن ذلك لا يقدر في علو منصبهم. اهـ.

فائدة:

✱ قال النووي رحمته الله: قوله رحمته الله: «كان لسليمان ستون امرأة»، وفي رواية: «سبعون»، وفي رواية: «تسعون»، وفي غير «صحيح مسلم»: «تسع وتسعون»، وفي رواية: «مائة» هذا كله ليس بمتعارض؛ لأنه ليس في ذكر القليل نفي الكثير. اهـ.

✱ ورد عليه الحافظ فقال رحمته الله^(٢): فمحصل الروايات ستون وسبعون وتسعون وتسع وتسعون ومائة، والجمع بينها: أن الستين كن حرائر، وما زاد عليهن كن سراري أو بالعكس. وأما السبعون فللمبالغة، وأما التسعون والمائة فكن دون المائة وفوق التسعين.

فمن قال تسعون ألغى الكسر، ومن قال مائة جبره، ومن ثم وقع التردد في رواية جعفر، وأما قول بعض الشراح ليس في ذكر القليل نفي الكثير، وهو من مفهوم العدد، وليس بحجة عند الجمهور، فليس بكاف في هذا المقام؛ وذلك أن مفهوم العدد معتبر عند كثيرين والله أعلم. اهـ.

(١) «فتح الباري».

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٦٠).

المسألة الرابعة والعشرون

❦ **حديث أبي هريرة** رضي الله عنه، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ، **فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ** ﷻ، قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اْعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ». متفق عليه^(١).

✕ **المعنى غير الصحيح:** قد يفهم بعضهم من قوله: «اْعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ» أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، والتهوين من ارتكاب المعاصي.

✓ **المعنى الصحيح:**

✱ **قال النووي** رحمته الله^(٢): «اْعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ» معناه: ما دمت تذنّب ثم تتوب غفرت لك، وهذا جار على القاعدة التي ذكرناها، قوله ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» ولا يختص قبولها بوقت. اهـ.

✱ **قال صاحب المرقاة**^(٣): قال الطيبي: أي اعمل ما شئت ما دمت تذنّب ثم تتوب فسوف أغفر لك، وهذه العبارة تستعمل في مقام السخط، **كقوله تعالى:**

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

(٢) في «شرح مسلم» (٧٥ / ١٧).

(٣) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١٦١٨ / ٤).

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] مراداً هنا، وفي مقام الحفاوة يعني مقام التلطف كما في الحديث، وفي قوله ﷺ في حق حاطب بن أبي بلتعة: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». وكما تقول لمن تحبه ويؤذيك: اصنع ما شئت فلست بتارك لك، وليس المراد من ذلك الحث على الفعل، بل إظهار الحفاوة.

*** وقال القرطبي:** فائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه، لأنه أضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها، لأنه أضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله، والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه.

*** وقال النووي رحمه الله:** في هذا الحديث أن الذنوب وإن تكررت مائة مرة بل ألفاً أو أكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته. ولو تاب من الجميع توبة واحدة صحت توبته. قلت: هذا الأخير بالإجماع وإنما خالف من خالف إذا تاب من بعض الذنوب، أو إذا نقض التوبة، والصحيح صحتها. اهـ.

*** قال ابن القيم رحمه الله (١):** ونظيرُ هذا قوله في الحديث الآخر: «أُذْنِبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فقال: أي رب! أذنبت ذنباً؛ فاغفره لي! فغفر له. ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: أي رب! أصبت ذنباً؛ فاغفره لي! فغفر له. ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: رب! أصبت ذنباً؛ فاغفره لي! فقال الله: عليمٌ عبدي أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي؛ فليعمل ما شاء».

(١) كما في «الفوائد» (١/ ٢٢).

فليس في هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له في المحرمات والجرائم، وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب.

واختصاص هذا العبد بهذا؛ لأنه قد علم أنه لا يصبر على ذنب، وأنه كلما أذنب تاب حكم يعم كل من كانت حاله كحاله، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر، وكذلك كل من بشره رسول الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشد اجتهادا وحذرا وخوفا بعد البشارة منهم قبلها؛ كالعشرة المشهود لهم بالجنة، وقد كان الصديق شديد الحذر والمخافة، وكذلك عمر؛ فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيدة بانتفاء موانعها، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق والإذن فيما شاؤوا من الأعمال. اهـ.

المسألة الخامسة والعشرون

❦ **حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي -أَوْ قَالَ: بَشَّرَنِي- أَنَّهُ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». رواه البخاري (١٢٣٧).

❦ **وحديث يحيى بن يعمر**، حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ الدَّؤْلِيَّ حَدَّثَهُ: أَنَّ أَبَا ذَرٍّ رضي الله عنه حَدَّثَهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضٌ، وَهُوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدْ اسْتَيْقَظَ، فَقَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْ قَبْلَهُ إِذَا تَابَ وَنَدِمَ، وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، غُفِرَ لَهُ. متفق عليه^(١).

❧ **المعنى غير الصحيح:** قد يفهم بعضهم من هذا أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، وكذلك التهاون في شأن المعاصي والذنوب.

✓ **المعنى الصحيح:**

❧ **قال النووي رحمته الله (٢):** وأما معنى الحديث وما أشبهه فقد جمع فيه القاضي عياض رحمته الله كلامًا حسنًا جمع فيه نفائس، فأنا أنقل كلامه مختصرًا، ثم أضم بعده

(١) رواه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (١٥٣).

(٢) في «شرح مسلم» (٢١٨/١).

إليه ما حضرني من زيادة: **قال القاضي عياض** رحمته الله اختلف الناس فيمن عصى الله تعالى من أهل الشهادتين: فقالت المرجئة: لا تضره المعصية مع الإيمان. وقالت الخوارج: تضره ويكفر بها. وقالت المعتزلة: يخلد في النار إذا كانت معصيته كبيرة، ولا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر، ولكن يوصف بأنه فاسق. وقالت الأشعرية: بل هو مؤمن وإن لم يغفر له وعذب، فلا بد من إخراجه من النار وإدخاله الجنة.

قال: وهذا الحديث حجة على الخوارج والمعتزلة، وأما المرجئة فإن احتجت بظاهره قلنا محمله على أنه غفر له، أو أخرج من النار بالشفاعة، ثم أدخل الجنة. فيكون معنى قوله رحمته الله: «دخل الجنة»، أي دخلها بعد مجازاته بالعذاب، وهذا لا بد من تأويله لما جاء في ظواهر كثيرة من عذاب بعض العصاة، فلا بد من تأويل هذا؛ لئلا تتناقض نصوص الشريعة.

وفي قوله رحمته الله «وهو يعلم» إشارة إلى الرد على من قال من غلاة المرجئة إن مظهر الشهادتين يدخل الجنة، وإن لم يعتقد ذلك بقلبه، وقد قيد ذلك في حديث آخر بقوله رحمته الله: «غير شاك فيهما»، وهذا يؤكد ما قلناه قال القاضي وقد يحتج به أيضا من يرى أن مجرد معرفة القلب نافعة دون النطق بالشهادتين، لاقتصاره على العلم.

ومذهب أهل السنة أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين، لا تنفع إحداهما ولا تنجي من النار دون الأخرى، إلا لمن لم يقدر على الشهادتين لآفة بلسانه، أو لم تمهله المدة ليقولها، بل اخترمته المنية. ولا حجة لمخالف الجماعة بهذا اللفظ إذ قد ورد مفسراً في الحديث الآخر: «من قال لا إله إلا الله»، و «من شهد أن لا

إله إلا الله وأني رسول الله»، وقد جاء هذا الحديث وأمثاله كثيرة في ألفاظها اختلاف، ولمعانيها عند أهل التحقيق ائتلاف، فجاء هذا اللفظ في هذا الحديث وفي رواية معاذ عنه رضي الله عنه: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، وفي رواية عنه رضي الله عنه: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة»، وعنه رضي الله عنه: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا حرمه الله على النار»، ونحوه في حديث عبادة بن الصامت وعتبان بن مالك رضي الله عنه وزاد في حديث عبادة: «على ما كان من عمل»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يلقي الله تعالى بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة وإن زنى وإن سرق»، وفي حديث أنس رضي الله عنه: «حرم الله على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله تعالى».

وهذه الأحاديث كلها سردها مسلم رضي الله عنه في كتابه، فحكى عن جماعة من السلف رضي الله عنهم منهم ابن المسيب أن هذا كان قبل نزول الفرائض والأمر والنهي، وقال بعضهم: هي مجملة تحتاج إلى شرح، ومعناه من قال الكلمة وأدى حقها وفريضتها وهذا قول الحسن البصري. وقيل: إن ذلك لمن قالها عند الندم والتوبة ومات على ذلك وهذا قول البخاري.

وهذه التأويلات إنما هي إذا حُمِلَت الأحاديث على ظاهرها، وأما إذا نزلت منازلها فلا يشكل تأويلها على ما بينه المحققون.

فنقرر أولاً أن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح، وأهل الحديث والفقهاء، والمتكلمين على مذهبهم من الأشعريين، أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأن كل من مات على الإيمان وتَشَهَّدَ مخلصاً من قلبه

بالشهادتين فإنه يدخل الجنة، فإن كان تائبًا أو سليمًا من المعاصي دخل الجنة برحمة ربه، وحرم على النار بالجملة.

فإن حملنا اللفظين الواردين على هذا فيمن هذه صفته كان بينًا، وهذا معنى تأويلي الحسن والبخاري، وإن كان هذا من المخلطين بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه أو بفعل ما حرم عليه، فهو في المشيئة لا يقطع في أمره بتحريمه على النار، ولا باستحقاقه الجنة لأول وهلة، بل يقطع بأنه لا بد من دخوله الجنة آخرًا، وحاله قبل ذلك في خطر المشيئة إن شاء الله تعالى عذبه بذنبه وإن شاء عفا عنه بفضلته.

ويمكن أن تستقل الأحاديث بنفسها ويجمع بينها، فيكون المراد باستحقاق الجنة ما قدمناه من إجماع أهل السنة أنه لا بد من دخولها لكل موحد؛ إما معجلًا معافي وإما مؤخرًا بعد عقابه، والمراد بتحريم النار تحريم الخلود خلافًا للخوارج والمعتزلة في المسألتين، ويجوز في حديث: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» أن يكون خصوصًا لمن كان هذا آخر نطقه وخاتمة لفظه، وإن كان قبل مخطئًا فيكون سببًا لرحمة الله تعالى إياه، ونجاته رأسًا من النار وتحريمه عليها، بخلاف من لم يكن ذلك آخر كلامه من الموحدين المخلطين، وكذلك ما ورد في حديث عبادة من مثل هذا.

ودخوله من أي أبواب الجنة شاء يكون خصوصًا لمن قال ما ذكره النبي ﷺ، وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد، الذي ورد في حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته، ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة إن شاء الله تعالى والله أعلم.

✍ هذا آخر كلام القاضي عياض رحمته الله وهو في نهاية الحسن، وأما ما حكاه عن بن المسيب وغيره فضعيف باطل؛ وذلك لأن راوي أحد هذه الأحاديث أبو هريرة رحمته الله وهو متأخر الإسلام، أسلم عام خيبر سنة سبع بالاتفاق، وكانت أحكام الشريعة مستقرة، وأكثر هذه الواجبات كانت فروضها مستقرة، وكانت الصلاة والصيام والزكاة وغيرها من الأحكام قد تقرر فرضها، وكذا الحج على قول من قال فرض سنة خمس أو ست، وهما أرجح من قول من قال سنة تسع. والله أعلم. اهـ.

* قال شيخ الإسلام رحمته الله ^(١): وأما قول القائل: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة؟ واحتججه بالحديث المذكور. فيقال له: لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعد، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠]، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾ [النساء: ٢٩] - ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ [النساء: ٢٩-٣٠]. ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، والعبد عليه أن يصدق بهذا وبهذا، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض، فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعد. والحرورية والمعتزلة: أرادوا أن يصدقوا بالوعد دون الوعد وكلاهما أخطأ.

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٧٠).

والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد، فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط: بأن لا يتوب، فإن تاب تاب الله عليه. وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات. وبأن لا يشاء الله أن يغفر له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فهكذا الوعد له تفسير وبيان.

فمن قال بلسانه: لا إله إلا الله وكذب الرسول فهو كافر باتفاق المسلمين، وكذلك إن جحد شيئاً مما أنزل الله، فلا بد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول. ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له؛ فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتدًا كان في النار، فالسيئات تحبطها التوبة والحسنات تحبطها الردة، ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، والله تعالى قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته، ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد في النار. فالزاني والسارق لا يخلد في النار، بل لا بد أن يدخل الجنة. فإن النار يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. اهـ.

*** وسئل العلامة العثيمين^(١):** ما صحة هذا الحديث قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي -أَوْ قَالَ: بَشَّرَنِي- أَنَّهُ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» وما معناه بالتفصيل؟

(١) كما في "فتاوى نور على الدرب للعثيمين" (٢/٦).

فأجاب ﷺ تعالى: هذا الحديث صحيح، ومعناه: أن الإنسان إذا مات على الإسلام فإنه يدخل الجنة ولو زنى وسرق، ولكن لا بد أن يعذب على ذنوبه بما شاء الله ﷻ إلا أن يغفر الله له. وهذا الحديث لا يعني إننا نتساهل في المعاصي والكبائر، بل هذا الحديث يرغب في تحقيق الإسلام، وأن الإسلام يمنع من الخلود في النار، ولكن على الإنسان أن يعلم أن المعاصي كما قال العلماء بريد الكفر، وأن المعاصي لا تزال بالرجل حتى يصل إلى حد الكفر والعياذ بالله؛ لأن الطاعات للقلب بمنزلة سقي الماء للشجرة، إذا داوم الإنسان عليه وثابر عليه بقيت الشجرة حية نضرة، وأن المعاصي بمنزلة قطع أغصان الشجرة، كلما قطع الإنسان منها غصناً ضعفت ونقصت، حتى تذهب أغصانها، وربما يكون في ذلك ذهاب أصلها.

فعلى الإنسان أن يحمي إيمانه بطاعة الله ﷻ واجتناب معصيته، لكن لو فرض أنه فعل من المعاصي ما لا يقتضي الكفر فإن مآله إلى الجنة إن شاء الله تعالى، وقولنا في جواب السؤال: فإن مآله إلى الجنة ليس معناه أن فعل المعاصي يؤدي إلى دخول الجنة، لكن معناه أن العاصي مهما بلغت ذنوبه من العظم إذا لم تصل إلى حد الكفر لا بد أن يكون مآله إلى الجنة بعد أن يعذب بما يقتضيه ذنبه، إلا أن يعفو الله عنه. اهـ.

*** وقال ﷺ^(١):** وفي حديث أبي ذر **ﷺ**: «أن من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة وإن زنى وإن سرق» وهذا لا يعني أن الزنى والسرقة سهلة، بل هي صعبة؛ ولهذا استعظمها أبو ذر وقال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق».

(١) في «شرح رياض الصالحين» (٣/ ٣٦٨).

وذلك لأن من مات على الإيمان وعليه معاص من كبائر الذنوب؛ فإن الله **يقول:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. قد يعفو الله عنه ولا يعاقبه، وقد يعاقبه، ولكن إن عاقبه فمآله إلى الجنة؛ لأن كل من كان لا يشرك بالله ولم يأت شيئاً مكفراً، فإن مآله إلى الجنة. اهـ.

المسألة السادسة والعشرون

قوله تعالى عن موسى عليه السلام قوله للخضر عليه السلام: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام: أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالْحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ فِي صَاحِبِ مُوسَى، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ خَضِرٌ، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى، الَّذِي سَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لُقْيَاهُ، هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ عليه السلام يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عليه السلام يقول: «بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدٌ أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْ مُوسَى: بَلَى: عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ سَلْتَقَاهُ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْينَا إِلَى الصَّخْرَةِ؟ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ، وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ. قَالَ: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي، فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَوَجَدَا خَضِرًا، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ اللَّهُ عليه السلام فِي كِتَابِهِ». رواه البخاري (٧٨).

× المعنى غير الصحيح: ربما اعتقد بعضهم أفضلية الخضر على موسى عليه السلام، - على القول بنبوة الخضر -؛ لأن موسى ذهب ليطلب العلم عنده، وقال له: (هل أتبعك) ومن قوله: (بلى عبدنا خضر) يعني أعلم منك وهذا المعنى غير صحيح.

وأما من يعتقد أن الخضر ليس بنبي وإنما هو ولي من الصالحين، ثم يعتقد أنه أفضل من موسى عليه السلام فهذا المعنى باطل ومنكر، وهو جار على اعتقاد بعض

الصوفية والرافضة والمبتدعة أن الأولياء أفضل من الأنبياء، بل ربما اعتقد بعضهم من الرافضة أن الأنبياء فشلوا في تبليغ الرسالة، وأنه لن يبلغها حق البلاغ إلا إمامهم المختبى في السرداب، كما يقول ذلك إمامهم الخميني.

✽ قال العلامة مقبل بن هادي الوادعي (رحمته الله): أن الخميني يقول: إن لأئمتنا منزلة لا ينالها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. يعنى أن أئمة أهل البيت أفضل من الأنبياء والملائكة. ويقول أيضاً: إن نصوص أئمتنا كالقرآن. ذكر هذين القولين في كتابه "الحكومة الإسلامية".

ويقول من إذاعة طهران: إن الأنبياء وأئمة أهل البيت لم ينجحوا في مهمتهم والذي سينجح في مهمته هو المهدي. ويعنى به صاحب السرداب المختفي في زعمهم منذ زيادة على ألف سنة والذي قال فيه بعض أهل السنة:

ما آن للسرداب أن يلد الذي كلفتموه بجهلكم ما أنا
فعلى عقولكم العفاء فإنكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

فهذه الثلاث الخصال تدل على كفر الخميني. اهـ.

✓ المعنى الصحيح:

أولاً: أن الراجح في أمر الخضر (عليه السلام) أنه نبي يوحى إليه، كما قال الله عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ وَعَنَّ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] أي إنما فعلت ذلك بوحي من الله.

ثانياً: أنه حتى على القول بنبوته فموسى (عليه السلام) أفضل منه بلا شك.

(١) كما في "تحفة المجيب على أسئلة الحاضر والغريب" ص (٣٣٠).

*** قال ابن حزم** رحمه الله ^(١): خُصَّ الخضر عليه السلام بعلم لم يعلمه موسى عليه السلام، حتى اتبعه موسى عليه السلام ليتعلم منه. وعلم أيضًا موسى عليه السلام علومًا لم يعلمها الخضر. وهكذا صح عن النبي ﷺ أن الخضر قال لموسى عليه السلام: أي على علم من علم الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه أنا.

قال أبو محمد: وليس في هذا أن الخضر أفضل من موسى عليه السلام. اهـ.

*** قال شيخ الإسلام** رحمه الله ^(٢): فإن الخضر لما علم ثلاث مسائل لم يعلمها موسى لم يكن أفضل من موسى مطلقًا، والهدهد لما قال لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢] [سورة النمل: ٢٢] لم يكن أعلم من سليمان مطلقًا. اهـ.

*** قال الحافظ ابن حجر** رحمه الله **ناقلًا عن القرطبي** رحمه الله ^(٣): ولنبه هنا على مغالطتين الأولى وقع لبعض الجهلة؛ أن الخضر أفضل من موسى؛ تمسكًا بهذه القصة وبما اشتملت عليه، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر فيما خص الله به موسى عليه السلام من الرسالة، وسماع كلام الله، وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء، وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطبون بحكم نبوته، حتى عيسى، وأدلة ذلك في القرآن كثيرة، ويكفي من ذلك **قوله تعالى**: ﴿قَالَ يَكُمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وسيأتي في أحاديث الأنبياء من فضائل موسى ما فيه كفاية.

(١) كما في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١٧/٥).

(٢) كما في «منهاج السنة النبوية» (١٥٩/٧).

(٣) كما في «فتح الباري» (٢٢١/١).

قال: والخضر وإن كان نبيا فليس برسول باتفاق، والرسول أفضل من نبي ليس برسول. ولو تنزلنا على أنه رسول فرسالة موسى أعظم وأمته أكثر فهو أفضل. وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل وموسى أفضلهم. وإن قلنا إن الخضر ليس بنبي بل ولي فالتنبي أفضل من الولي، وهو أمر مقطوع به عقلاً ونقلاً، والصائر إلى خلافه كافر؛ لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة. **قال:** وإنما كانت قصة الخضر مع موسى امتحاناً لموسى ليعتبر. اهـ.

*** قال الطحاوي رحمته الله (١):** ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء. اهـ.

*** قال شيخ الإسلام رحمته الله (٢):** وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياضته واجتهاده في العبادة وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء، من غير اتباع لطريقهم، وفيهم طوائف يظنون أنهم صاروا أفضل من الأنبياء، وأن الولي الذي يظنون أفضل من الأنبياء، وفيهم من يقول: إن الأنبياء والرسول إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء، ويدعي في نفسه أنه خاتم الأولياء. اهـ.

*** وقال شيخ الإسلام رحمته الله (٣):** وكذلك طائفة من الغلاة يعتقدون الإلهية أو النبوة في علي عليه السلام، وفي بعض أهل بيته: إما الاثنا عشر، وإما غيرهم.

(١) «العقيدة الطحاوية».

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٣٣٢).

(٣) «منهاج السنة النبوية» (٨/ ٥٩).

وكذلك طائفة من العامة والنسك يعتقدون في بعض الشيوخ نوعاً من الإلهية أو النبوة، أو أنهم أفضل من الأنبياء، ويجعلون خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، وكذلك طائفة من هؤلاء يجعلون الأولياء أفضل من الأنبياء. ويعتقد ابن عربي ونحوه: أن خاتم الأنبياء يستفيد من خاتم الأولياء، وأنه هو خاتم الأولياء.

ويعتقد طائفة أخرى: أن الفيلسوف الكامل أعلم من النبي بالحقائق العلمية والمعارف الإلهية.

فهذه الأقوال ونحوها هي من الكفر المخالف لدين الإسلام باتفاق أهل الإسلام، ومن قال منها شيئاً فإنه يستتاب منه، كما يستتاب نظرائه ممن يتكلم بالكفر، كاستتابة المرتد إن كان مظهرًا لذلك، وإلا كان داخلاً في مقالات أهل الزندقة والنفاق.

وإن قُدر أن بعض الناس خفي عليه مخالفة ذلك لدين الإسلام: إما لكونه حديث عهد بالإسلام، أو لنشأته بين قوم جهال يعتقدون مثل ذلك فهذا بمنزلة من يجهل وجوب الصلاة أو بعضها، أو يرى الواجبات تجب على العامة دون الخاصة، وأن المحرمات كالزنا والخمر مباح للخاصة دون العامة.

وهذه الأقوال قد وقع في كثير منها كثير من المنتسبين إلى التشيع، والمنتسبين إلى كلام أو تصوف أو تفلسف، وهي مقالات باطلة معلومة البطلان عند أهل العلم والإيمان، لا يخفى بطلانها على من هو من أهل الإسلام والعلم. اهـ.

المسألة السابعة والعشرون

﴿قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾﴾ (١٣٣)

[آل عمران: ١٢٣].

✖ **المعنى غير الصحيح:** ربما فهم بعضهم من **قوله:** ﴿أَذِلَّةٌ﴾ أنه الذل الذي بمعنى الخزي والمهانة، وهذا معنى باطل وغير صحيح.

✓ **المعنى الصحيح:**

* **قال ابن كثير** رحمته الله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: قليل عددكم؛ ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد؛ **ولهذا قال** في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) [التوبة: ٢٥-٢٧]. اهـ.

* **قال الحافظ ابن حجر** رحمته الله (١): **قوله:** ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: قليلون بالنسبة إلى من لقيهم من المشركين، ومن جهة أنهم كانوا مشاة إلا القليل منهم. ومن جهة أنهم كانوا عارين من السلاح، وكان المشركون على العكس من ذلك، والسبب في ذلك أن النبي ﷺ نذب الناس إلى تلقي أبي سفيان لأخذ ما معه من أموال قريش، وكان من معه قليلاً، فلم يظن أكثر الأنصار أنه يقع قتال، فلم يجز معه

(١) في "فتح الباري" (٧/ ٢٨٥).

منهم إلا القليل ولم يأخذوا أهبة الاستعداد كما ينبغي، بخلاف المشركين فإنهم خرجوا مستعدين ذابين عن أموالهم. اهـ.

*** قال الشنقيطي رحمه الله^(١): قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل**

عمران: ١٢٣] وصف الله المؤمنين في هذه الآية بكونهم أذلة حال نصره لهم ببدر. وقد جاء في آية أخرى وصفه تعالى لهم بأن لهم العزة، وهي **قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾** [المنافقون: ٨]، ولا يخفى ما بين العزة والذلة من التناقض والتضاد. والجواب ظاهر، وهو: أن معنى وصفهم بالذلة هو قلة عددهم وعددهم يوم بدر. **وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾** [المنافقون: ٨] نزل في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق، وذلك بعد أن قويت شوكة المسلمين وكثر عددهم وعددهم، مع أن العزة والذلة يمكن الجمع بينهما باعتبار آخر، وهو: أن الذلة باعتبار حال المسلمين من قلة العدد والعدد، والعزة باعتبار نصر الله وتأييده، كما يشير إلى هذا **قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [الأنفال: ٢٦]، **وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾** [آل عمران: ١٢٣]، فإن زمان الحال هو زمان عاملها، فزمان النصر هو زمان كونهم أذلة. فظهر أن وصف الذلة باعتبار، ووصف النصر والعزة باعتبار آخر، فانفكت الجهة. والعلم عند الله تعالى. اهـ.

فائدة:

(١) في "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" ص (٧٤) [طعطاء العلم].

✽ قال العلامة العثيمين رحمته الله^(١): وذكر أهل العلم أن العزة تنقسم إلى ثلاثة

أقسام: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع:

١ - عزة القدر: معناه أن الله تعالى ذو قدر عزيز، يعني: لا نظير له.

٢ - وعزة القهر: هي عزة الغلبة، يعني: أنه غالب كل شيء قاهر كل شيء،

ومنه **قوله تعالى عن أمر المحصنين**: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]،

يعني: غلبني في الخطاب. فالله سبحانه عزيز، بل هو غالب كل شيء.

٣ - وعزة الامتناع: وهي أن الله تعالى يمتنع أن يناله سوء أو نقص، فهو

مأخوذ من القوة والصلابة، ومنه قولهم: أرض عزاز، يعني قوية شديدة.

هذه معاني العزة التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وهي تدل على كمال قهره

وسلطانه، وعلى كمال صفاته، وعلى تمام تنزهه عن النقص.

تدل على كمال قهره وسلطانه في عزة القهر. وعلى تمام صفاته وكمالها وأنه

لا مثيل لها في عزة القدر. وعلى تمام تنزهه عن العيب والنقص في عزة الامتناع.

قوله: ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، يعني: أن الرسول ﷺ له عزة،

وللمؤمنين أيضًا عزة وغلبة. ولكن يجب أن نعلم أن العزة التي أثبتها الله لرسوله

وللمؤمنين ليست كعزة الله، فإن عزة الرسول ﷺ والمؤمنين قد يشوبها ذلة؛

لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقد يغلبون أحيانًا

لحكمة يريد بها الله ﷻ، ففي أحد لم يحصل لهم تمام العزة، لأنهم غلبوا في

النهاية لحكم عظيمة، وكذلك في حنين ولوا مدبرين، ولم يبق مع النبي ﷺ، من

(١) «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٣٤٥).

أثني عشر ألفاً إلا نحو مائة رجل. هذا أيضاً فَقْدٌ للعزة لكنه مؤقت. أما عزة الله ﷻ، فلا يمكن أبداً أن تفقد. وبهذا عرفنا أن العزة التي أثبتها الله لرسوله وللمؤمنين ليست كالعزة التي أثبتها لنفسه. اهـ.

✽ **وقال العلامة العثيمين** رحمته الله ^(١): ومنها: أن من والاه ﷻ فلا ذل له لقوله: «ولا يذل من واليت» **فإن قال قائل**: أليس النبي ﷺ وأصحابه قد وصفهم الله بالذل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]؟ **فالجواب**: بلى، والمراد بالذل هنا: الذل النسبي، يعني: بالنسبة لقوة الكفار أنتم أذلة ومع ذلك نصركم الله.
 إذن من فوائد هذا الحديث: أنه لا يذل من والاه الله ﷻ لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا يذله أمام نفسه ولا أمام غيره، فإنه يغلب نفسه الأمانة بالسوء، ويفعل ما به رضا الله ﷻ ولا يرد على هذا ما يقع بعض الأحيان من ذل أولياء الله ﷻ لأن هذا الذل شيء طارئ عاقبته العزة كما قال الله ﷻ في سورة آل عمران حين بين الفوائد العظيمة في غزوة أحد التي انهزم فيها المسلمون: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وهذه غنيمة، ومنها أنه من أجل أن يمحق الكافرين، ومعنى ذلك: أن الكافر إذا انتصر ازداد طمعا فقاتل، فإذا قاتل صارت الهزيمة عليه هو، وقد ذكر ابن القيم رحمته الله على قصة أحد فوائد عظيمة فقهية وعقدية من أحب أن يراجعها فليفعل فإنه مفيد، فصار هذا الأمر أمراً طارئاً، لكن عواقبه العز. اهـ.

(١) عند شرح حديث الحسن في قنوت الوتر في «فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام» (٢/١٣٨).

المسألة الثامنة والعشرون

حديث جُنْدُبٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ أَوْ كَمَا قَالَ». رواه مسلم (٢٦٢١).

وفي رواية أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِشَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلَّنِي وَرَبِّي أَبْعَثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْ بَقَتْ ذُنْبَاهُ وَآخِرَتَهُ.^(١)

✕ المعنى غير الصحيح: قد يفهم بعضهم من الحديث أن صاحب العبادة لم تنفعه عبادته فدخل النار، وصاحب المعاصي دخل الجنة، فيحصل التماضي في المعاصي، والتزهيد في العبادة، وهذا المعنى غير صحيح.

(١) رواه أبو داود (٤٩٠١). قال الألباني: صحيح. وصححه العلامة الوادعي رحمه الله في «الصحيح

المسند مما ليس في الصحيحين» (١٣٠٢).

✓ المعنى الصحيح:

* قال العلامة العثيمين رحمته الله ^(١): وكذلك حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أخبر أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان. وكان هذا الرجل عابداً معجباً بعمله محتقراً لأخيه، الذي رآه مفرطاً، فأقسم أن الله لا يغفر له، فقال الله ﷻ: من ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان، يعني من ذا الذي يحلف علي أن لا أغفر لفلان، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، إني قد غفرت له وأحبطت عملك، أعوذ بالله، تكلم بكلمة أوبقت دينه وآخرته أهلكته؛ لأنه قال ذلك معجباً بنفسه، محتقراً لأخيه، فأقسم أن الله لا يغفر له، فغفر الله لهذا الرجل، لأن معاصيه دون الشرك، أو لأن الله تعالى من عليه فتاب، وأما الآخر فأحبط عمله؛ لأنه أعجب بعمله والعياذ بالله، وتألى على ربه وأقسم عليه أن لا يغفر لفلان، والله تعالى كامل السلطان، لا يتألى عليه أحد، ولكن إذا حسن ظن المرء بربه، وتألى على الله في أمر ليس فيه عدوان على الغير، فإن النبي ﷺ قال: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ» والله الموفق. اهـ.

* وقال رحمته الله ^(٢): والرجل المطيع الذي يمر بالعاصي من بني إسرائيل، ويقول: والله؛ لا يغفر الله لفلان. قال الله له: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك؛ فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان؛ لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قوما كانوا من أكفر عباد الله وأشدّهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كان كذلك؛ فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة؟

(١) في «شرح رياض الصالحين» (٦/ ٢٦١).

(٢) في «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (٩/ ٢٨٣).

وما دام الإنسان لم يمت؛ فكل شيء ممكن، كما أن المسلم نسأل الله الحماية قد يزيغ قلبه لما كان فيه من سريرة فاسدة. فالمهم أن هذا الحديث يجب أن يتخذ عبرة للمعتبر في أنك لا تستبعد رحمة الله من أي إنسان كان عاصيا. اهـ.

*** وقال ﷺ ^(١):** ومن ذلك قصة الرجل العابد الذي كان يمر برجل مسرف على نفسه، فقال: والله لا يغفر الله لفلان، أقسم أن الله لا يغفر له، لماذا يقسم؟ هل المغفرة بيده؟ هل الرحمة بيده؟ فقال الله جل وعلا: «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟» استفهام وإنكار «فإني قد غفرت له وأحببت عملك»؛ نتيجة سيئة والعياذ بالله، لم يبر الله بقسمه، بل أحبط عمله، لأنه قال ذلك إعجابًا بعمله، وإعجابًا بنفسه، واستكبارًا على عباد الله ﷻ. اهـ.

👉 ويحمل قوله: «قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ» على أحد وجهين:

١ - أن الإحباط هو لكامل عمله؛ وذلك لكونه قد تعلق بعمل نفسه، وظن أن له بذلك إدلالًا وتحكمًا على الله تعالى في رحمته، فكان هذا سببًا لإبطال كل ما سبق من عمله، حيث فقد ركنًا من أركان العبادة، وهو ركن الذل والخضوع لله تعالى.

٢ - أن الإحباط هو لنوع العمل الذي كان متقدما فيه على ذلك العاصي الذي قصر فيه هذا الأخير، فيكون الإحباط جزئيا من باب العقوبة على ذلك التآلي. والله تعالى أعلم بالصواب. اهـ.

(١) في «شرح رياض الصالحين» (٣/٦٦).

المسألة التاسعة والعشرون

﴿قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾﴾ (٨٤)

[الزخرف: ٨٤].

✖ المعنى غير الصحيح: قد يفهم بعضهم من الآية أنه سبحانه في كل مكان بذاته، وهذا المعنى باطل وغير صحيح.

✓ المعنى الصحيح:

✱ قال شيخ الإسلام رحمته الله (١): قال ابن قتيبة: وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤] فليس في ذلك ما يدل على الحلول بهما، وإنما أراد أنه إله السماء ومن فيها وإله الأرض ومن فيها. ومثل هذا من الكلام قولك: هو بخراسان أمير، وبمصر أمير، فالإمارة تجتمع له فيهما، وهو حال بأحدهما أو بغيرهما. هذا واضح لا يخفى. اهـ.

✱ وقال رحمته الله (٢): وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي هو إله من في السماوات وإله من في الأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، كما فسره أئمة العلم، كالإمام أحمد وغيره: أنه المعبود في السماوات والأرض. اهـ.

(١) كما في "شرح حديث النزول" ص (٦٠).

(٢) كما في "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" ص (١٢٣).

*** وقال ابن كثير رحمه الله: وقوله:** ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبداه أهلها، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وهذه الآية **كقوله تعالى:** ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] أي: هو المدعو الله في السموات والأرض. اهـ.

*** وقال العلامة العثيمين رحمه الله (١): فإن قلت:** كيف تجمع بين هذه الآية ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] وبين **قوله تعالى:** ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، **وقوله:** ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]؟!

فالجواب: أن نقول:

أما الآية الأولى، فإن الله **يقول:** ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾، فالظرف هنا لألوهيته، يعني: أن ألوهيته ثابتة في السماء وفي الأرض، كما تقول: فلان أمير في المدينة ومكة، فهو نفسه في واحدة منهما، وفيهما جميعاً بإمارته وسلطته، فالله تعالى ألوهيته في السماء وفي الأرض، وأما هو ﷻ ففي السماء.

أما الآية الثاني: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ فنقول فيها كما قلنا في التي قبلها: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾، أي: وهو الإله الذي ألوهيته في السماوات وفي الأرض، أما هو نفسه، ففي السماء. فيكون المعنى: هو المألوه في السماوات المألوه في الأرض، فألوهيته في السماوات وفي الأرض. فتخرج هذه الآية كتخريج التي قبلها.

(١) في "شرح العقيدة الواسطية" (١/ ٣٩٩).

وقيل المعنى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾، ثم تقف، ثم تقرأ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، أي أنه نفسه في السماوات، ويعلم سركم وجهركم في الأرض، فليس كونه في السماء مع علوه بمانع من علمه بسركم وجهركم في الأرض.

وهذا المعنى فيه شيء من الضعف، لأنه يقتضي تفكيك الآية وعدم ارتباط بعضها ببعض، **والصواب الأول:** أن نقول: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، يعني أن ألوهيته ثابتة في السماوات وفي الأرض، فتطابق الآية الأخرى. اهـ.

المسألة الثلاثون

حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ رَبُّكُمْ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا قَلْبَكَ غَنَى وَأَمَلًا يَدَيْكَ رِزْقًا، يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَبَاعِدْ مِنِّي فَأَمَلًا قَلْبَكَ فَقْرًا وَأَمَلًا يَدَيْكَ شُغْلًا»^(١).

✖ المعنى غير الصحيح: قد يفهم بعضهم من قوله: «تفرغ لعبادتي»: ذم العمل والاكتساب وهذا الفهم غير صحيح.

✓ المعنى الصحيح:

✱ قال الصنعاني رحمته الله^(٢): والمراد من التفرغ للعبادة إثارها على حظوظ الدنيا والإتيان بما أمر به منها فلا تلهيه عن ذكر الله لا أنه لا يفعل إلا العبادة. اهـ.
 ➡ فالمراد: ألا يلهيه طلب الرزق عن عبادة الله، بل إن من اعظم أسباب الرزق والغنى الإقبال على عبادة الله.

✱ يقول السعدي رحمته الله في تفسير قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]: وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه، لكنه لا تلهيهم تلك،

(١) رواه الحاكم، وهو في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» برقم (١١٢٧).

(٢) كما في «التنوير شرح الجامع الصغير» (٣/ ٤١٠).

بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذَكَرَ اللَّهُ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾، بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه. اهـ.

وقد وردت الأدلة بالحث على الكسب الحلال الطيب والاستغناء عن الناس والصدقة من عمل اليد:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وَعَنِ الْمِقْدَامِ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ». رواه البخاري (٢٠٧٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام الْقُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ». رواه البخاري (٣٤١٧).

وَعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رضي الله عنه، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: «عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٧٢٦٥)، وهو في «الصحيحة» للألباني برقم (٦٠٧).

(٢) رواه أحمد، وهو في «الصحيح المسند» (١٢٦٦).

وَعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَسِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ». رواه البخاري (١٤٧١).

قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة، في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدار الآخرة. ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمسكن والمناكح، فإن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، ولزورك عليك حقا، فات كل ذي حق حقه. اهـ.

والصحابة رضوان الله عليهم المهاجرون منهم كانوا يتجرون ويصنفون في الأسواق، والأنصار منهم كانوا يعملون في مزارعهم، ولم يكن يلهيهم ذلك أو يشغلهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، وطلب العلم والدعوة إلى الله سبحانه، وقد نقلوا لنا هذا الدين، وحفظ الله بهم دينه وبلغوه في الأمصار، ولكن كانت الدنيا في أيديهم ولم تكن في قلوبهم، كانوا يقدمون طاعة الله ورسوله على حاجاتهم، ويبدلون أموالهم في سبيل الله، حتى وجد منهم من يحامل على ظهره من أجل أن يتصدق، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

فهرس الموضوعات

٣	مقدمة
٦	المسألة الأولى
١١	المسألة الثانية
١٤	المسألة الثالثة
١٩	المسألة الرابعة
٢٣	المسألة الخامسة
٢٨	المسألة السادسة
٤٠	المسألة السابعة
٤٣	المسألة الثامنة
٤٧	المسألة التاسعة
٤٩	المسألة العاشرة
٥٢	المسألة الحادية عشرة
٥٦	المسألة الثانية عشرة
٦٢	المسألة الثالثة عشرة
٦٤	المسألة الرابعة عشرة
٦٧	المسألة الخامسة عشرة
٧٠	المسألة السادسة عشرة
٧٤	المسألة السابعة عشرة
٧٦	المسألة الثامنة عشرة
٧٩	المسألة التاسعة عشرة
٨١	المسألة العشرون

المسألة الواحدة والعشرون	٨٥
المسألة الثانية والعشرون	٨٧
المسألة الثالثة والعشرون	٨٩
المسألة الرابعة والعشرون	٩١
المسألة الخامسة والعشرون	٩٤
المسألة السادسة والعشرون	١٠٢
المسألة السابعة والعشرون	١٠٧
المسألة الثامنة والعشرون	١١١
المسألة التاسعة والعشرون	١١٤
المسألة الثلاثون	١١٧
فهرس الموضوعات	١٢٠